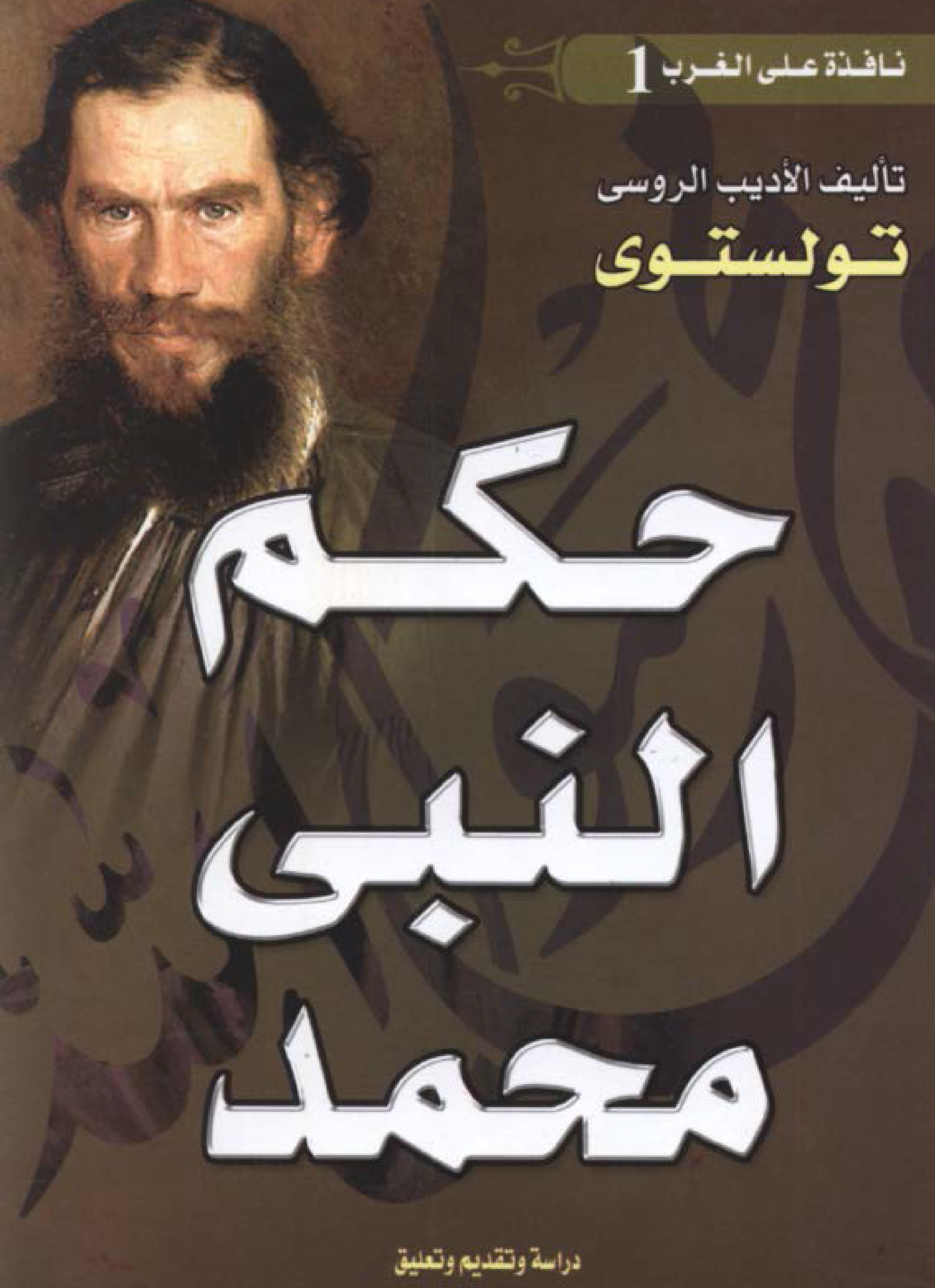


نافذة على الغرب 1

تأليف الأديب الروسى

تولستوى

حكم النبى محمد

دراسة وتقديم وتعليق

د. محمود النجيرى

مكتبة النافذة

نافذة على الغرب

حكم النبى محمد

تأليف الأديب الروسى

تولستوى

دراسة وتقديم وتعليق

د. محمود النجيري

مكتبة النافذة

حكم النبى محمد

تأليف: ليو تولستوى

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٣٨٩٧ / ٢٠٠٦

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

النـــاشر

مكتبـــة النـــافذة

1 ش المستشار حسن دياب (برج مكة 3) المنشية

(ميدان الساعة) _ إمتداد الثلاثيني

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 _ 39848568

محمول: 0123595973 فاكس: 37827787

Email:alnafezah@hotmail.com

تولستوي والإسلام

تصدير للمحرر

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين. وبعد...

نيقولا يفينتشي تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م)، روائي وكاتب روسي، يُعد من أشهر الكُتاب في العالم في مجال الأدب. ومصلح اجتماعي، وداعية سلام، ومفكر عميق التفكير، وفيلسوف تناول في كتاباته مواضيع أخلاقية ودينية واجتماعية.

عاش مجاهدًا في سبيل الإيمان الحقيقي الصحيح، ومخالفًا للكنيسة ورسومها، ومناضلا في سبيل تعليم الفلاحين، وحصولهم على حقوقهم في الأرض التي يزرعونها، وتخليصهم من رقّ العبودية.

كتب تولستوي في يومياته ربيع عام (١٩٠١م)، وكأنه يتأمل الدرب الطويل الذي اجتازه، ويفكر بأهم ما كان في حياته، قال: "إن الأوقات السعيدة في حياتي، هي تلك الأوقات التي منحتُها كاملة لخدمة الناس".

تولستوي الكاتب الروائي:

في أواخر حياته، عاد تولستوي لكتابة الرواية والقصة، فكتب "موت إيفان إيليتش" (١٨٨٦م). كما كتب بعض الأعمال المسرحية، مثل "قوة الظلام" (١٨٨٨م). وأشهر أعماله التي كتبها في أواخر حياته كانت "البعث"، وهي قصة كتبها سنة (١٨٩٩م). تليها في الشهرة قصة "الشيطان" (١٨٨٩م)؛ و"كريوتز سوناتا" (١٨٩١م)؛ و"الحاج مراد" التي نُشرت بعد وفاته، والتي توضح عمق معرفته بعلم النفس، ومهارته في الكتابة الأدبية. وقد اتصفت كل أعماله بالجدية والعمق وبالطرافة والجمال[١].

تولستوي المعلم:

هذا الروائي الروسي الموهوب، طغت جوانب شخصيته الأدبية والاجتماعية علي الجانب التربوي فيه. فترى كثيرين لا يعرفون الوجه الآخر لتولستوي، وهو المفكر التربوي، والمعلم المهموم بقضايا التربية والتعليم.

أقدم تولستوي في عمر التاسعة عشرة علي تنظيم مدرسة في قريته "ياسنايا بوليانا". وسجل ذلك في مجموعته القصصية "قصص سيبا ستوبول"، لتكون إيذانا بميلاده الأدبي، وليعود بعد استقالته من العسكرية، ويستأنف العمل في مدرسته.

واستفاد تولستوي من رحلته الطويلة- إلي ألمانيا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا- في دراسة المؤسسات التربوية فيها، إلي جانب دراسته لأدبها وفنونها.

---

[١] موقع ويكيبيديا WIKIMEDIA الموسوعة الحرة. الشبكة الدولية للمعلومات.

وقد ألف كتابا مدرسيًا مطورًا سمَّاه "الأبجدية"، صدر عام (١٨٧٢م). وصفه بقوله: "بذلت فيه روحي بأكملها". وصارت هذه الأبجدية حدثا تربويًا كبيرًا في التعليم الروسي.

وفيما بعد طوَّر "أبجديته" الأولي، مستفيدًا من الملحوظات والانتقادات التي وُجهتْ إليها. وأقرتْ وزارةُ التربية الروسية هذه "الأبجدية الجديدة" في جميع مدارس الدولة. وطُبع منها في حياة تولستوي نحو ثلاثين طبعة، واعتبرت نموذجا للبساطة المثلي، والحقيقة الحيَّة، ووصفت بأنها قمة الكمال، سواء من الناحية السيكولوجية أو الفنية.

ومن كتب تولستوي التعليمية التي ألفها: "محاورات مع الأطفال"، و"أفكار تربوية".

والطريف أن انهماك تولستوي في التدريس في مدرسته، وإدارة شئونها، أدى إلي أن تشكوه زوجته "صوفيا" في رسائلها إلي أهلها، واتهمته بإهمالها!

تولستوي الفنان:

كان الروائي الروسي الأعظم تولستوي نموذجًا للمثقف الذي توحد عنده الفكر والممارسة، والتنظير وتغيير الواقع، ورصد الإنسان ومحاولة تحسين واقع هذا الإنسان.

يقول تولستوي: "إن الهدف الرئيسي للفن هو أن يُظهر الحقيقة عن روح الإنسان، وأن يكشف عن الأسرار التي لا يمكن التعبير عنها بكلمات يسيرة. إن الفن ميكروسكوب يسلطه الفنان على روحه، ويعرض تلك الأسرار المشتركة مع الناس".

لقد امتلك تولستوي امتلاكًا مدهشًا فن الوصف، والتحليل النفسي الدقيق، والقدرة على نزع الغطاء من أكثر الحركات سريةً للقلب الإنساني. واستخدم في فنه الفائق علمه بالإنسان، من أجل هدف واحد: أن يقول الحقيقة للناس، عن الحياة، وعن أنفسهم.

وكتب غوركي معبرًا عن إعجابه بموهبة تولستوي الهائلة، وغنى شخصيته، فقال: "فيه شيء ما يوقظ بداخلي الرغبة المستمرة أن أصرخ بكل إنسان.. بالجميع: انظروا! أي إنسان فريد يعيش على هذه الأرض"!.

ومن كتب تولستوي المشهورة كتاب: "ما الفن"؟ أوضح فيه أن الفن ينبغي أن يُوجِّه الناس للأخلاق الفاضلة، وأن يعمل على تحسين أوضاعهم، ولابد أن يكون الفن بسيطًا يخاطب عامة الناس.

وامتدادًا لهذا الاتجاه كان طبيعيًا أن يذهب تولستوي إلى أن الفن لا يجب أن يتعارض مع الدين.

تولستوي والأدب العربي:

في سبتمبر من عام ١٨٤٤، قُبِل تولستوي طالبًا بقسم اللغتين التركيّة والعربيّة، في كلية اللغات الشرقية بجامعة قازان. وقد اختار ليف تولستوي هذا الاختصاص لسببين: الأول أنه أراد أن يصبح دبلوماسيًا في الشرق العربي، والثاني أنّه مهتم بآداب شعوب الشرق.

إنّ تولستوي من الذين اعترفوا بما في تراثنا من قيمٍ إنسانيةٍ، ودعوةٍ إلى المحبة والتسامح، والخير والعدل، والرحمة والمساواة.

لقد أجاب تولستوي (برسالته المؤرخة بتاريخ ٨ أغسطس عام (١٩٠٨م) من

قريته "ياسنايا بوليانا"، رجل الدين واسمه "سولوفيوف"، الذي طلب منه العودة إلى رحاب الكنيسة الروسية، أجابه بما يلي:-"في إحدى الحكايات العربية قرأت ما يلي: ...". ويذكر هنا تولستوي حكايةً عربيةً خلاصتها أنّ اللّه يتقبل الصلاة، التي تصدر من أعماق القلب، حتى وإن كانت بالشكل لا تتطابق مع الصلوات التقليدية. ويبيّن تولستوي: أنَّ هذه الحكاية أعجبته كثيرًا.

هذه الأمثلة، إن دلت على شيء، فإنما تدل على الاحترام الكبير الذي تضمنه فكر الكاتب الروسي العظيم للشعب العربي وتاريخه، وفكره، وأدبه، وتراثه.

وقد اهتم بشخصية تولستوي وإبداعه القراءُ العربُ، والكتّاب، والنقاد، والمترجمون. وبدأ هذا الاهتمام بأدب تولستوي في مطلع القرن العشرين، ولم يضعف حتى يومنا الحاضر.

بدأت ترجمة مؤلفات تولستوي عن اللغة الروسية إلى اللغة العربية. وأصبحت مؤلفات الكاتب الروسي تظهر باللغة العربية بصورةٍ متزايدةٍ سنةً بعد أخرى. فأغنى تراث تولستوي الأدب العربي وتغلغل إلى أعماقه.

تولستوي والكنيسة:

حين يُسأل تولستوي عن تعريف الإيمان؟ يُجيب: بأنّ الإيمان هو الذي يحيا به الإنسان، وأنه رصيد الحياة.

وعلى العكس من هذه الفكرة، طريقة الذين يعتقدون بأنّ الدين قيد، وأنّ الإلحاد حرية وانطلاق.

لقد تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وكان مناضلا في سبيل الإيمان الحقيقي الصحيح، ولكن اختلفت نظرته إلى رجال الدين؛ فقاوم الكنيسة

الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورها.

وكان تولستوي من الشجاعة بحيث كشف تحالف الكنيسة والقيصر ضد الشعب، يقول: "لقد استولى حب السلطة على قلوب رجال الكنيسة كما هو مستول على نفوس رجال الحكومات، وصار رجال الدين يسعون لتوطيد سلطة الكنائس من جهة ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة أخرى".

إذن فمصلحة السلطتين تقتضي استقرار أوضاع ظالة على صورتها القائمة.

ولم تقبل الكنيسة آراء تولستوي التي انتشرت في سرعة، فكفرته وأبعدته عنها.

وأُعجب بآرائه عدد كبير من الناس، كانوا يزورونه في مقره بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء، تاركًا عائلته الثرية المترفة.

ونتيجة لهذا الصراع أوصى تولستوي بدفنه بعد موته مباشرة، بلا طقوس، ولا تقاليد معتادة، ودون اهتمام زائد. وبالفعل دُفِنَ تولستوي كما أوصى، في قبر متواضع، وبدون صلاة على جثته، ودون وضع صليب على قبره.

ومن ناحية أخرى، فإن الأوساط المسيحية في المشرق العربي وقفت ضد المبادئ الأساسية لفكر تولستوي. أيّ أنَّ موقف الأوساط المسيحية الشرقية كان متطابقًا مع موقف الكنيسة في روسيا. مع أن تولستوي كان ناقدًا لرجال هذه الأخيرة، لا لهم جميعًا!

والذين لم يتقبلوا نقد تولستوي للكنيسة. اتهموه بالإلحاد، وبأنّه شوَّه الإنجيل[٢].

[٢] الكاتب الروسي: ليف تولستوي والأدب العربي في القرن العشرين. دراسة تطبيقية في الأدب المقارن. موقع الأديب حسن غريب. الشبكة الدولية للمعلومات.

قوة تولستوي دفاعه عن المستضعفين:

كتب الناقد الروسي الكبير أ.س.سوفورين في يومياته (بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٠١م) ما يلي:

"لدينا في روسيا، قيصران: نيكولاي الثاني، وليف تولستوي، مَنْ منهما الأقوى؟ لا يستطيع نيكولاي الثاني أن يفعل شيئا مع تولستوي. لا يستطيع هزَّ عرشه، في حين أنّ تولستوي، وبلا شكٍ، يهزُّ عرش نيكولاي وعائلته"!

بمَ يمكن تفسير قوة تولستوي؟

لا شك أن قوة تولستوي في كونه عبَّر عن مصالح ملايين الفلاحين الروس. ذلك أنه لم يُبدع مؤلفاتٍ فنيةً فحسب، يقدِّرها النقاد، وتقرأها الجماهير دائمًا. بل إنّه قد نجح أيضًا في أن يعكس بقوةٍ رائعةٍ الحالة الفكرية للجماهير الواسعة المظلومة من قبل النظام الظالم، ويصف وضعها، ويُعبِّر عن مشاعرها العفوية.. مشاعر الاحتجاج والغضب.

ساعدت هذه الميزة الهامة من ميزات أدب تولستوي على انتشار هذا الإبداع، وعلى شعبيته في العالم. ولكن في مطلع القرن العشرين، لاقت اهتمامًا خاصًا تعاليمه الدينية والأخلاقية.

بلسان تولستوي، كانت تتكلم الجماهير الغفيرة من الشعب الروسي، التي باتت تكره سادة العيشة الخانعة، والتي لما تتوصل إلى جهادٍ حاسمٍ واعٍ، لا هوادة فيه، ضد هؤلاء السادة. وفي هذه المرآة كان كل شعب مقهور يرى نفسه.

هل أسلم تولستوي؟

هناك دلائل ترجح أن تولستوي دخل في دين الإسلام في آخر حياته، مثل بعض

كلمات الكاتب العالمي ليو تولستوي، كقوله:

"إن كنت موجودًا فلا بد من وجود سبب ما لهذا الوجود، ومسبب له، وهو ما يدعوه الناس الله".

"سوف تسود شريعة القرآن العالم، لتوافقها مع العقل، وانسجامها والحكمة. لقد فهمت، وأدركت أن ما تحتاج إليه البشرية، هو شريعة سماوية، تُحِقّ الحقّ، وتُزهقُ الباطل... ستعم الشريعة الإسلامية كل البسيطة؛ لائتلافها مع العقل؛ وامتزاجها بالحكمة والعدل... ويكفي محمدًا فخرًا أنه خلص أمةً ذليلةً دمويةً من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريقَ الرُّقي والتقدم، وأنا واحد من المبهورين بالنبي محمد، الذي اختاره الله الواحد؛ لتكون آخر الرسالات على يديه وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء".

وجدير بالذكر أنّ تولستوي قرأ ترجمة القرآن باللغة الفرنسية. وتوجد نسخة من القرآن الكريم في مكتبة تولستوي في بيته بقريته "ياسنايا بوليانا". ودوّن الكاتب الروسي بعض الملحوظات، التي تدل على قراءته للقرآن الكريم. وهذه النسخّة محفوظة في مكتبته الخاصة، التي تحولت فيما بعد إلى متحفٍ لمتعلقاته.

كتب تولستوي قصة "الحاج مراد" مابين عامي (١٨٩٦م)، و(١٩٠٥م). ولا نستطيع القول: إنَّ هناك تأثيرًا للأدب العربي. ولكننا نقرأ أسماءً عربيةً مثل: مراد، وشامل، ومحمد، وأحمد، وسعدو. ونقرأ عباراتٍ عربيةً، مثل: السلام عليكم، ولا إله إلا الله. ونحس تعاطف تولستوي مع الحاج مراد، وتفهمه لشخصيته.

ومن الثابت أن تولستوي كتب في بعض آخر رسائله للإمام محمد عبده ما ترجمته: "بقيت لي ثلاثة أسئلة، إن أجبتَ عليها إجابة مَرْضية، اتخذت الإسلام دينًا".

والثابت كذلك أنه وصّى ألا يُصَلّي عليه قسيس، وأن يُدفن بهيئة معلومة، ومكان محدد في ضيعته، وألا يوضع عليه صليب. وحال قبره اليوم يشهد على ذلك، فهو لا يختلف عن حال قبور سائر المسلمين.

ومن المفيد أن نعلم كذلك أن الكنيسة قد نبذته، وتبرأت منه.

وهناك احتمال تستر زوجته على إسلامه الذي سبق موته بقليل. يقول الدكتور محمود علي التائب:

"كنت اعلم أن ثمة مراسلات بين تولستوي أديب روسيا الأكبر، وبين الإمام محمد عبده. لكنني لم أكن اعلم أن هذا الأديب، قد دفعه إحساسه العميق بالبطولة الشيشانية إلى أن يُضمّن روايته "حاجي مراد" أول نبضات قلبه بدين الإسلام. وأنه قد أسلم قبيل وفاته، وأن زوجته قد جهدت في إخفاء هذا التحول الروحي عنه، وأن ابنه الأصغر ميخائيل عاش سنوات عمره الأخيرة في المغرب، وأن هناك من يقطع بإسلامه أيضًا[٣]".

الظروف السياسية التي كتب فيها تولستوي هذا الكتاب:

لا يكشف عورات نظام سياسي، مثل نظام سياسي آخر، يتلوه بعد أن ينتصر عليه، ويزيحه من سدة الحكم، ويجرده من سلاح الدعاية الباطلة والأكاذيب. وهذا ما كان من النظام الشيوعي الذي حاول تجميل وجهه القبيح بذكر مساوئ القيصرية فكان مما قال عن أحوال المسلمين في ظل هذا النظام:

"كانت روسيا القيصرية بلاد القهر الوطني العنيف. وكانت كل القوميات

[٣] موقع صحيفة الصحافة (Alsahafa)، النسخة الإلكترونية. رئيس التحرير: عادل الباز. أسسها عبد الرحمن مختار، في ١٩٦١م. العدد رقم (٤٧٠١)، بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٩م.

غير الروسية تعاني تمييزًا في المعاملة. وكان جمهور الشعب المحروم من حقوقه يعيش في جهل وفقر".

"وكان دين الدولة في روسيا القيصرية مذهب الكنيسة الأرثوذكسية، وكانت مصالح هذه الكنيسة في حماية السلطة السامية لرئيس الدولة، القيصر. وكانت كل الديانات الأخرى- بما فيها دين الإسلام- محدودة الحقوق، ومسموحًا بها بالكاد. وكان أتباع العقيدة الإسلامية والعقائد الأخرى غير المسيحية يدعون **"بالمارقين"**. أما الشعوب المسلمة فهي من **"الخوارج"**. وكان القانون يعاقب بقسوة كل أرثوذكسي يتخذ الإسلام- أو أي عقيدة أخرى- دينا له. وحتى في قوانين سنة ١٩٠٥م، التي اضطرت الحكومة القيصرية تحت ضغط الثورة الروسية الأولى أن تعلن فيها "حرية الدين" المزعومة، كان **"المارقون"** ممنوعين منعا باتا من **"محاولة تغيير عقيدة الذين لا ينتمون إلى دينهم"**. أما عندما يعتنق واحد من المسلمين أو من العقائد الأخرى العقيدة الأرثوذكسية، فإن القانون حدد أن أي فرد **"وأيا كانت الظروف"** لا يستطيع أن يعوق ذلك".

"وكان غير مسموح للمجالس الشرعية أن توجد في الأماكن التي يسكنها المسلمون إلا بإذن من الحكومة القيصرية. وفي المناطق التي كانت تعتبر "مشبوهة سياسيا" (شمالي القوقاز وآسيا الوسطى)، لم يكن مسموحًا بإقامة المجالس الشرعية على الإطلاق. وكان يدير الشئون الدينية للمسلمين الحكام المدنيون والعسكريون".

"وكان الرؤساء الدينيون- مفتي السنيين، وشيخ الإسلام عند الشيعة فيما وراء القوقاز- لا ينتخبون بواسطة ممثلي رجال الدين ومجموع المسلمين، ولكن كما ينص القانون: **"تعينهم السلطة السامية في مناصبهم حسب ما يعرضه وزير الداخلية"**، أي يعينهم القيصر".

"وبهذا الهدف عهدت الحكومة القيصرية إلى رؤساء المجلس الإسلامي، والشخصيات الإسلامية الكبيرة، بمهام استتبعت خدمتهم للحكومة في الإدارة الاستعمارية. وهكذا وضعتهم في مستوى واحد مع مستخدمي القيصر المدنيين. وتنص قوانين الامبراطورية الروسية على أن منصب **"الملا"**، ووظائف الخطيب، والإمام للطائفة الإسلامية لا يوكل بها إلا لأشخاص يعتمد عليهم، ومعروفين بولائهم للأوتوقراطية الروسية. وكان على رجال الدين المسلمين، كبارهم وصغارهم، عندما يعينون، أن يقسموا يمين الولاء للقيصر"[4].

ومن هذا النقل نستنتج سان تولستوي كان عظيم الشجاعة، ومخلصًا في نصرة الحقيقة؛ إذ هو يواجه- في قوة- خصومه الذين شمروا عن ساعد الجد، وتنادوا لحرب الإسلام: القيصر وحكومته، والكنيسة ورجالها، والمستشرقين، والمنصرين، وسائر المتعصبين لباطلهم. ولم يتراجع عن قول كلمة حق اعتقدها، ونصرة المستضعفين، والدفاع عن الإسلام ورسوله محمد ﷺ.

تولستوي وشخصية نبينا محمد ﷺ:

ترجم عبد الله السهروردي، الهندي المسلم، بعض الأحاديث النبوية إلى اللغة الإنجليزية، وصدرت في الهند، عام (١٩٠٨م). واطلع عليها "تولستوي"، فترجمها إلى اللغة الروسية، وقدَّم لها مقدمة تتسم بالإنصاف التام، والإعجاب الكامل برسول الله محمد ﷺ، وبما في تعاليمه من قيم سامية، وفكر راقٍ.

ولما رأى الفيلسوف الروسي تولستوي تحامل الملحدين والمنصرين على الدين الإسلامي ورسوله ﷺ- هزته الغيرة على الحق الذي يعرفه؛ وشعر في أعماقه بأن

---

[4] المسلمون في الاتحاد السوفيتي: ف.يفريموف- ل.جاباروف، المكتب الصحفي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٧-٨

السكوت عن البيان ليس من سمات الكاتب الحر، والمفكر الأصيل.

فتصدى لتأليف رسالة عن نبي الإسلام ﷺ، ضمنها هذه الأحاديث النبوية الشريفة، وجوانب من تاريخ حياته، قال فيها:

"لا ريب أن هذا النبي من كبار المُعلِّمين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمةً جليلة. ويكفيه فخرًا أنه هَدَى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء! وفتح لها طريق الرقي والتقدم. وهذا عمل عظيم، لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلمًا. ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام".

وقد اختار تولستوي من هذه الأحاديث ما أحب. وقال بأن ما دفعه إلى هذه الترجمة هو تحامل جمعيات المبشرين في "قازان" التي هي من أعمال روسيا، على الدين الإسلامي، ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أمورًا تتنافى مع الحقيقة، تصور للروس تلك الديانة وأعمال معتنقيها تصويرًا يغاير حقيقتهم وواقعهم.

وقد قدم تولستوي للكتاب بمقدمة تحدث فيها عن قضايا كثيرة تتصل بالإسلام والمسلمين في روسيا. وضرب أمثلة من أقوال المستشرقين وغيرهم، قبل أن يصل إلى الأحاديث التي ترجمها.

هذا وقد لخص في كتابه الأصول البارزة للدين الإسلامي، وعرض لحياة النبي محمد- عليه الصلاة والسلام، وتقشفه وصبره ومعاناته مع الكفار.

والجدير بالذكر أنّ تولستوي نظر إلى شخصية رسول الله ﷺ نظرةً كلها احترام وتقدير. ولعل أكبر دليل على ذلك أنّه أصدر هذا الكتاب باللغة الرّوسية بعنوان: "حِكم النبي محمد" في عام (١٩٠٩م)، أيّ قبل وفاته بعامٍ واحدٍ، وقصد من كتابه هذا الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ.

وقام سليم قبعين بترجمة كتاب تولستوي إلى اللغة العربيّة في عام ١٩١٢، وأضاف إليه مقدمة عن أوضاع المسلمين في روسيا في أوائل القرن التاسع عشر، وذكر بعض آراء المنصفين للإسلام، والمتعصبين عليه.

ولكن هذه الترجمة تحتاج إلى تحرير وتنظيم، وتعليق وبيان، ورد على الشبهات التي تثيرها نصوصه، وإضافة عن حياة تولستوي، وشخصيته، وفكره، وآثاره. وموضوعات أخرى عن إسلامه، وموقفه من الكنيسة، وموقف الكنيسة منه.

عملي في هذا الكتاب:

يلحظ أن معرب هذا الكتاب لم يضع له فهرسًا، ولم يحسن تقسيمه إلى مقالات منفصلة، لكل منها وحدة موضوعية، وأغفل وضع عناوين في بداية بعض هذه الموضوعات، وقدّم موضوعات كان حقها التأخير، كرسالة محمد عبده إلى تولستوي، وشعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في رثائه، ولم يورد رد تولستوي على رسالة محمد عبده.

ويلحظ أيضًا أنه ترجم مقالة، ولم يذكر اسم صاحبها، ولم نتمكن من معرفته.

وبالترجمة أخطاء في النحو واللغة، وركاكة في الأسلوب أحيانا وتعقيد، اقتضى إعادة الصياغة.

ويؤخذ على الترجمة أيضًا: التداخل في الأدعية بين أثر وآخر، ونسبة بعض الآثار إلى النبي ﷺ، وهي ليست من قوله، وكان يجب بيان ذلك.

ومن هنا انصرفتْ همتي إلى ما يلي:

١. أعدت تنظيم مادة الكتاب وتحريرها. فأخرت بعض الموضوعات، مثل: مراسلات محمد عبده وتولستوي، ورثاء الشعراء لتولستوي.

٢. أضفت بعض النواقص، كرد على رسالة محمد عبده، ورسالة محمد عبده الثانية إلى تولستوي، ورثاء الشعراء لتولستوي، وبعض المقالات، كمقالة "اعتراف تولستوي"، و"تولستوي ومشكلاته".

٣. وضعت كثيرًا من العناوين الرئيسية والفرعية. كما وضعت أحيانًا عناوين مناسبة، غير التي وضعها ولا تفي بالمطلوب.

٤. علقت على ما يلزم، وعالجت القضايا التي أثارها الكتاب، ورددت على الشبهات المثارة ضد الإسلام ورسوله ﷺ.

٥. خرجت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار. وحكمتُ على ما لم يوجد من هذه الأحاديث في الصحيحين.

٦. بيَّنت معنى الغريب من اللغة، وأشكلت المبهم.

٧. عرَّفت بالأعلام والأماكن. وخصوصًا تولستوي، وسليم قبعين.

٨. وضعت فهرسًا للموضوعات، وآخر للمراجع التي رجعت إليها.

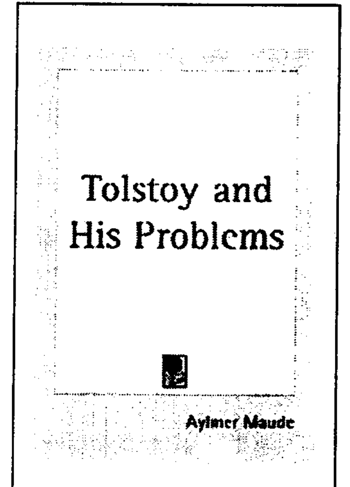
٩. صدَّرت الكتاب بتقدمة، ألقيت فيها مزيدًا من الأضواء على هذا الكتاب، وظروف تأليفه، وعلى كاتبه، وموقفه من الإسلام ورسوله ﷺ.

وإنني أترك للقارئ جانب التحليل والدراسة المعمقة لمحتوى هذا الكتاب؛ للخروج بنتائج تساعد في اختيار الطريقة المثلى لمخاطبة الغربيين، وفي اتخاذ المواقف المناسبة من القضايا المعاصرة، مثل: مسألة الرسوم المسيئة لرسول الله ﷺ في الصحافة الغربية، و مسألة ما يسمى بالإرهاب الإسلامي.

محمود النجيري

١. تولستوي ومشكلاته*

تأليف: آيلمر مود



مؤلف هذا الكتاب هو الباحث "أيلمر مود"، أحد كبار مترجمي تولستوي إلى اللغة الإنجليزية. كما أنه أحد كبار شارحيه والمختصين برواياته وفكره. وهو هنا يقدم لمحة عامة عن حياته، وعن المشكلات الأدبية والفلسفية والسياسية التي شغلته طيلة حياته كلها.

وُلد تولستوي عام (١٨٢٨م)، في عائلة كبيرة تنتمي إلى النبلاء الروس. وكانت لهم أراضٍ واسعة ككل الإقطاعيين في ذلك الزمان. وأبوه كان يحمل لقب "الكونت". أما أمه فكانت من طبقة الأمراء، وهذا يعني أنه كان من أصل عالي المستوى في روسيا، بل ويجيء في المرتبة التالية للعائلة المالكة.

وقد ماتت أمه وهو في الثانية من عمره، فربته عماته وخالاته. وقد أثر ذلك في

* موقع البيان © مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر ٢٠٠٦ ©. الاثنين ٢٨ جمادى الآخرة، ١٤٢٧هـ (الموافق ٢٤ يوليو، ٢٠٠٦م). السنة السابعة والعشرون، العدد ٩٥٣٢

أدبه لاحقا.

وفي عام (١٨٢٧م)، أي عندما كان في التاسعة من عمره، توفي والده أيضًا. وكان ذلك بعد انتقال العائلة إلى موسكو مباشرة قادمين من الريف، وهكذا أصبح يتيم الأبوين. ولكنه لم يواجه مشكلات مادية بسبب غنى العائلة وثروتها الطائلة.

وفي سنة (١٨٤٤م)، التحق بالجامعة. والمدهش أنه اختار قسم الآداب العربية والتركية، قبل أن يتحوّل إلى كلية الحقوق في العام التالي. ولكن التدريس الجامعي السائد في تلك الأيام لم يعجبه؛ فهجر الدراسة، وذهب إلى الريف؛ للاهتمام بمزرعته الكبيرة في منطقة ساحرة الجمال.

ثم انخرط في صفوف الجيش في منطقة القوقاز، وخاض الحروب، وعرَّض نفسه للخطر أكثر من مرة. وفي الوقت نفسه، أخذ يعد نفسه للكتابة الأدبية؛ فنتج عن ذلك ثلاثيته، التي يتحدث فيها عن طفولته، ومراهقته، وشبابه الأول. وبالتالي فقد سبق نجيب محفوظ إلى كتابة الثلاثيات.

ثم يردف المؤلف قائلاً: كان الأدب بالنسبة له عبارة عن أداة للتحليل النفسي للذات. فهو شخص مهووس بالاستبطان الداخلي؛ لمعرفة سبب الصراع الذي يشعر به بين مبادئه الأخلاقية العالية، واستسلامه لعالم الشهوات المادية المضادة للمثل العليا.

ثم استقال من الجيش عام (١٨٥٦) لكي يتفرغ للأدب تمامًا. وعاد إلى روسيا من منطقة القوقاز بعد موت القيصر المستبد "نقولا الأول"، وصعود قيصر إصلاحي على سدة السلطة، هو "اليكسندر الثاني".

وأخذ تولستوي يفكر في تحرير أقنانه[٦]، أي عبيده الذين يشتغلون في أراضيه الواسعة. وهذا أكبر دليل على كرمه الحاتمي، ونزعته الإنسانية العميقة تجاه الفقراء والمعذبين في الأرض. كما أخذ ينشئ المدارس الابتدائية في الريف؛ لتعليم أطفال الفلاحين الروس. ومعلوم أن الأمية كانت منتشرة آنئذٍ في صفوفهم بنسبة ٩٠٪ على الأقل.

ثم يردف المؤلف قائلا: والواقع أن تولستوي منذ بداية شبابه كان مهمومًا بتربية الشعب وترقيته ورفع مستواه عن طريق التعليم والتثقيف، وقد كتب مرة يقول: إن سعادتي الشخصية لا يمكن أن تكتمل إلا بسعادة الآخرين. وما دام الشعب في أغلبيته الساحقة فقيرًا معدمًا؛ فإنني لن أكون سعيدًا.

لقد صدم تولستوي النبلاء الآخرين بتوجهاته الإنسانية هذه. ولم يفهموا سبب اهتمامه بالفلاحين الجهلة والأغبياء- على حد تعبيرهم. وكانوا يعتقدون أن الله خلق العالم، وقسمه إلى قسمين: قسم النبلاء الأشراف المحظوظين، وقسم بقية الشعب من الفلاحين. وأن هؤلاء ينبغي أن يخدموا النبلاء عن طريق العمل في الأرض. وأما النبلاء فلا يشتغلون، ولا يتعبون؛ لأنهم من جنس، وبقية البشر من جنس آخر!

وهذه الرؤيا كانت أبعد ما تكون عن عقلية تولستوي، بل كان يحتقرها كل الاحتقار. وكثيرًا ما نقم على طبقة النبلاء والمجتمع الروسي بسبب ذلك.

[٦] أقنان: جمع قن. والعَبْدُ القنّ الذي مُلِك هو وأبواه. ويقال: القِنُّ المُشْتَرَى. وفي الأثر: أن الأَشْعَثَ بن قَيْسٍ، خاصم أهل نَجْرانَ إلى عمر في رِقابهم، وكان قد استعبدهم في الجاهلية، فلما أسلموا أَبَوْا عليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين! إنا إنما كنا عبيد مَمْلُكة، ولم نكن عبيدَ قِنٍّ". المَمْلُكة بضم اللام وفتحها: أن يَغْلِبَ عليهم فيستعبدَهم، وهم في الأصل أحرار (لسان العرب ١٠/٤٩١).

ثم سافر عام (١٨٥٧م) إلى أوروبا الغربية لكي يكتشف الحضارة. ومعلوم أنها كانت أكثر تقدمًا من روسيا بكثير ولا تزال. وقد زار ألمانيا، وفرنسا، وسويسرا على التوالي. واطلع هناك على المدارس الأدبية والفكرية. كما اطلع على مناهج التربية والتعليم السائدة في مدارس البلدان المتحضرة. وكان هدفه من ذلك بالطبع هو الاستفادة منها، ونقلها إلى المدارس الروسية التي أنشأها لتعليم أبناء الفلاحين.

في عام (١٨٦٩م) أنهى ليون تولستوي كتابة روايته الكبيرة الأولى: «الحرب والسلام». وكانت كتابتها قد استغرقت منه خمس سنوات. وفي عام (١٨٧٧م) أنهى روايته العظيمة الثانية: "آنا كارنينا". وعندئذ شعر وكأنه أصبح على حافة الانهيار العصبي. ويقال بأنه فكر جديا في الانتحار. ثم تراجع عنه في آخر لحظة فقد شعر بعبثية الحياة ولا معنى الوجود، على الرغم من كل غناه وثروته وموهبته وعبقريته. وراح يحسد الفلاحين البسطاء الذين يشتغلون في أراضيه؛ لأنهم مؤمنون بالدين إيماناً راسخا؛ ولا يمكن لهذه التساؤلات الميتافيزيقية أن تخطر على بالهم لحظة واحدة، فالفناء أو العدم الذي كان يحس به تولستوي، أو يخشاه بعد الموت، لا وجود له بالنسبة إليهم. ولهذا السبب عاد إلى الدين من جديد، بل وذهب يلزم نفسه تأدية الطقوس والشعائر المسيحية طيلة عامين (١٨٧٧ـ١٨٧٨م) لكي يحمي نفسه من إغراء الانتحار.

ولكن تولستوي اكتشف بعدئذ أن الكثير من الشوائب لحقت بالدين على مر العصور؛ ولهذا السبب تخلى عن القشور السطحية واكتفى بالجوهر. وقال بأن الدين يتمثل في شيئين أساسيين: محبة الله، ومحبة البشر، ولا شيء آخر. وبالتالي فلا داعي للطقوس والشعائر.. وهكذا راح يختزل الدين إلى المبادئ الأخلاقية فقط، فالإنسان الذي يفعل الخير بقدر المستطاع، ويتحاشى الشر بقدر المستطاع،

هو مؤمن عظيم الإيمان، حتى ولو لم يذهب إلى الكنيسة، أو لو لم يُصَلِّ فيها مرة واحدة.

وعندما عاد إلى موسكو عام (١٨٨١م)، بعد طول غياب، وجد فيها الفقر والبؤس، وبخاصة في الأحياء الشعبية والضواحي المحيطة بها. وهاله الأمر. وراح ينقم على النظام السياسي والاجتماعي السائد، ليس فقط في روسيا، وإنما أيضاً في العالم كله، وأخذ ينادي بنفس المبادئ التي نادى بها "جان جاك روسو" من قبل، وقال بأن الملكية هي سبب استغلال الإنسان للإنسان، وانتشار الظلم والتمييز في المجتمع، فطبقة الإقطاعيين تمتلك كل أراضي روسيا، ومعظم الشعب هو من الفلاحين، ولا يمتلك أي شيء تقريبًا. فأين العدل إذن؟

وبدأ يؤلف كتابًا بعنوان «ما الذي ينبغي أن نفعله»؟ وقد ضمنه كل أفكاره الثورية هذه. وندد فيه بهيمنة الأغنياء على الفقراء. وقال بأن الكنيسة متواطئة مع الدولة والنظام القائم. فالسلطة تستخدم الدين كسلاح فعال لتخدير الشعب من أجل أن يقبل بواقعه المزري، ولا يثور على مستغليه وأسياده الإقطاعيين. وأما العلم والتقدم التكنولوجي والحياة الرغيدة، فكلها أشياء محصورة بطبقة الأغنياء، ولا يعرف عنها الشعب شيئاً.

ثم يردف المؤلف قائلاً: ولكن تولستوي على الرغم من إدانته لهذا النظام الجائر السائد في روسيا، لم يوافق على أعمال الإرهاب الثورية التي ابتدأ بعضهم يقوم بها. ومعلوم أن روسيا شهدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عمليات اغتيال عديدة، أصابت الكثير من الوزراء والأعيان، بل وحتى أحد القياصرة أنفسهم.

وكان المنظرون الهدامون والفوضويون الروس يبررون ذلك بأن الشعب

يتخبط في الفقر والبؤس والمرض والجهل. وكل ذلك بسبب هؤلاء الحكام الطغاة والفاسدين. ولكن تولستوي بسبب ارتباطه بمبدأ اللاعنف أدان هذه التفجيرات الإرهابية، ورفض تبريرها بحجة خدمة قضية الشعب. ومعلوم أنه أسس فكرة اللاعنف قبل غاندي، وربما كان هذا الأخير قد أخذها عنه.

وعلى أية حال، فقد كان تولستوي إنسانًا عظيمًا، يمتلئ قلبه عاطفة وحنانًا تجاه الجنس البشري كله، وبالأخص تجاه الفقراء والبسطاء، سواء أكانوا في روسيا أو خارجها. وقد ناضل في أواخر القرن التاسع عشر ضد المجاعة التي اكتسحت روسيا، وبذل الكثير من ماله وأملاكه لتخفيف آلام الفقراء.

وهكذا نلحظ أن مشكلات تولستوي، أو بالأحرى همومه العميقة- كانت خاصة، وعامة. فعلى المستوى الشخصي، كان مهووسًا بمسألة الحياة والموت، ومعنى الوجود. وكان مثل أستاذه جان جاك روسو مهووسًا بمسألة الأصالة والصدق مع الذات، والاقتراب من الطبيعة، والبعد عن الاصطناع الذي تتميز به حياة المدن.

وفي بعض الفترات، وقع في إغراء الوثنية أو وحدة الوجود والانصهار في الطبيعة، ثم عاد إلى المسيحية. ولكنه بعد أن عاد إليها، أخذ يخلصها من الشوائب والخرافات والأوهام التي لحقت بها على مر العصور، وغطت على جوهرها. فجوهر الدين- في نهاية المطاف- يتمثل في عدة مبادئ يسيرة جدًا: حب الآخرين، ومساعدة الفقراء والمحتاجين قدر الإمكان، والتعاطف مع المظلومين والمضطهدين، وتحاشي الشر وضرر الآخرين.. ثم محبة الله وطاعته حبًا خاصًا، بل هذا هو المبدأ الأول في الدين.

وهذا هو الدين الحق في نظر تولستوي، والباقي تفاصيل. وقد حاول تولستوي على مدار حياته الطويلة تطبيق هذه المبادئ، ولم يكتفِ بالنص عليها نظريًا، أو

رفع شعاراتها أمام الناس. فقد حرر عبيده أو أقنانه قبل غيره، وفتح المدارس في الأرياف الروسية؛ لتعليم أبناء الفلاحين وصرف من جيبه على مشاريع خيرية عديدة.

ودعا إلى تعميم تجربته على كل أنحاء روسيا، وقال بالحرف الواحد: "سوف أسخر كل ثروتي وطاقاتي من أجل تثقيف الشعب وتعليمه، وحتى لو عارضتني السلطة كلها، فسوف أسير في مشروعي حتى النهاية. وحتى لو وقفت في وجهي كل روسيا، فلن أتراجع عن هذا البرنامج".

ليس غريباً إذن أن تولستوي قد أصبح أحد أعمدة الأدب الروسي. فلا أحد يستطيع أن ينافسه على القمة إلا ذلك "المجنون" الرائع دستويفسكي. بل ويمكن اعتباره إحدى منارات الأدب العالمي، وليس فقط الروسي. فعندما نذكر مشاهير الطبقة الأولى، نجد أسماء: شكسبير، سيرفانتس، بلزاك، دستويفسكي، تولستوي، جان جاك روسو، دانتي، أبو العلاء المعري، الخ... إنه ينتمي إلى ذلك الجنس النادر في التاريخ البشري: جنس العباقرة الطيبين، لا عباقرة الشر، وأبطال الجريمة والحروب وسفك الدماء[٧].

---

[٧]. الكتاب: تولستوي ومشكلاته، الناشر: كيسنغر بوبليشنغ، نيويورك ٢٠٠٥م.
Tolstoy and his Problems, Aylmer Maude, Kessinger Publishing - New York ٢٠٠٥).

٢. اعتراف تولستوي[٨]

كُتب قبل مئة عام، لكنه كتاب للمستقبل.

* * *

هذا كتاب له خصوصيته التي لا تُقارن بأي من كتابات تولستوي الأخرى على عظمتها. لم يأخذ هذا الكتاب- ضمن كتابات تولستوي الدينية- ما يستحقه من شهرة مثل أعماله الأدبية، لا لأنه أقل قيمة، بل لأنه يحوي مفاهيم ومعرفة روحية عالية القيمة، لم يمكن أن تقدر في الوقت الذي كتبها فيه، وهو أواخر القرن التاسع عشر، ولا على مدى القرن العشرين كله، حيث سواد المادية لا يعطي الفرصة لفهم هذا الكتاب وتقديره، إلا بين القليلين في عصره، ممن يقدرون التجربة الروحية!

اخترنا كتاب "اعتراف"، الذي كُتب قبل حوالي مئة عام؛ لأننا ندرك أن قيمته ستظهر أكثر في المستقبل القريب، حيث إن العالم بدأ عصرًا جديدًا، يبحث فيه الإنسان عن معنى حياته، وخلاص روحه.

---

[٨] موقع طريق إلى البيت، هذا المقال بالإنجليزية، تاريخ: ١٩٩٨-١١-٠١

كتاب "اعتراف" لتولستوي كتاب للمستقبل، وليس من الماضي. وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فليس هناك في الكتابات الروحية الأصيلة ماض ولا مستقبل، وإنما هناك حقيقة يكتشفها الباحث عنها.. حقيقةٌ وجودُها قبل وبعد الزمان والمكان، وفوق أي لغة، أو جنس، أو ظاهر دين. إنها حقيقة الإنسان!

نشأ الفتى الصغير في بيئة مسيحية متدينة، وكان يتلقى دروسه الدينية في مدرسته، ويقوم بطقوسها في استسلام.

وفي سن الثامنة عشرة، حين بدأ يشعر أن إشارات الصليب التي يؤديها وانحناءات الركبة تعبدًا واحترامًا في صلاته، ليس لها أي مدلول عنده، وأنه غير قادر على الاستمرار في "الكذب"- توقف عن أدائها تمامًا. لكن- كما يقول: "كان داخلي شعور ما، بأنني أؤمن بشيء ما. أؤمن بإله. أو بمعنى آخر، لا أنكر وجوده. ولكن أي إله؟ لم أكن أدرك على وجه التحديد. أذكر أيضًا أني لم أكن أنكر تعاليم المسيح؟ لكن ماذا كانت تعني لي هذه التعاليم وقتها؟ لا أستطيع أن أعرف تماما".

ينطلق الشاب ينشد الكمال والاكتمال في كل شيء: في علومه، وفي المعرفة العامة، وفي صحته ولياقته البدنية. ومع هذا كله، وفوقه، ينشد "الكمال الأخلاقي".. فماذا وجد؟

يقول في اعترافه: "كلما حاولتُ أن أعبِّر عن رغبتي العميقة، وطموحاتي الأخلاقية، كنت أقابَل ممن حولي بالازدراء والاحتقار. وحينما أسلم نفسي للرغبات الوضيعة، أقابل بالمدح والتشجيع".

وبدأ الشاب الصغير يستبدل طموحاته الأخلاقية بطموحات أخرى يقرها المجتمع. يعبر هو عن هذا المجتمع الذي نشأ فيه بقوله إنه مجتمع يعتبر أن

"الطموح، وشهوة القوة، والمصلحة الذاتية، والانغماس في الشهوات، والتكبر، والغضب، والانتقام"- هي الصفات التي يجب أن تُحترم. فصار طموحه الأساسي أن يكون أكثر شهرة، وأكثر أهمية، وأكثر ثراء من أي إنسان آخر، حتى لو كان ذلك- كما يقول- من خلال ارتكاب خطأ ما!

ويبدأ تولستوي- في سن السادسة والعشرين- الاختلاط بطبقة الكتّاب والشعراء والمثقفين، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم رواد "التعليم" في ذلك الزمن. أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أصبح "التطور"، أو "التقدم" هو الدين الجديد للمجتمع.

ويتذكر تولستوي هذه الفترة قائلا: "كنا نتحدث جميعًا في وقت واحد، ولا يستمع أحدٌ للآخر.. أحيانًا يمتدح واحد منا صاحبه؛ انتظارًا لمدحه في المقابل، وأحيانًا تتعالى صرخات الاعتراض فيما بيننا، كما لو كنا في مستشفى للأمراض العقلية".

في إحدى رحلاته لباريس، يرى شبابا تُجتث رءوسهم من قبل السلطة؛ بحجة أنهم من أعداء "التقدم". ويحرك المشهد أعماقه، فيقول في نفسه: "لو كان كل الناس- منذ بدء الخليقة، وحتى الآن، تحت أي مزاعم، يقتنعون بأن مثل هذا العمل ضروري، فأنا أعرف تمامًا أنه ليس ضروريًا، وأنه خاطئ. ومن هنا، فالحكم على شيء بأنه ضروري وصواب، يجب ألا يأتي من مصدر خارجي مهما كان، حتى لو كان هذا يتعلق بـ"التقدم"، ولكن يجب أن ينبع مما تستشعره الروح".

وفي موقف آخر، يموت أخوه الأكبر، بعد معاناة مع المرض، فيقول تولستوي في نفسه، والحزن يعتصره: "مات دون أن يفهم: لماذا كان يعيش؟ أو لماذا مات؟". لكن الأمر كله عند تولستوي كان لا يزال مرهونا بما سيأتي به "التطور"، فيقول: ما لا

أفهمه الآن سأفهمه غدا من خلال التطور.

بعد هذين الموقفين، يشعر بأن هنـاك سـؤالا في أعماقـه عـن المعنـى الحقيقـي للحياة يؤرقه، وهو لا يملك إزاءه إلا الهروب بالانغماس في العمل. كـان في بدايـة الثلاثينات من عمره، فظنّ أن تكوين أسرة قد يهدئ من نفسه، هـذه المؤرقـة بـلا سبب معروف. وفعلا تمضي الحياة به مع زوجة حبيبة وأطفال رائعـين، لمـدة خمسـة عشر عامًا، يضع فيها الأولوية القصوى، والهدف من الحياة: تـوفير أفضـل معيشـة لهذه الأسرة.

وفي وقت كان فيه تولستوي يتمتع بكل ما يمكن أن يرنو إليه إنسان في حياتـه المادية، تحدث له أشياء غريبة- من وجهة نظـره، في ذلـك الوقـت. كـان في بدايـة العقد الخامس من عمره، ويتمتع بصحة ممتازة، ويلقى شهرة ونجاحـا فائقـا، ولديـه أموال وأموال... حياة أسرية ناجحة بكل المقـاييس. فيفاجئـه سـؤال مـن الـداخل: "وماذا بعد؟". يهرب من السؤال، ويقول لنفسـه: حـين أفـرغ مـن هـذا العمـل سأفكر في إجابة. لكن لا يبقى مجرد سـؤال، أو خـاطر عـابر. إنـه يأخـذه إلى حالـة نفسية من الاكتئاب، والرغبة في الانعزال.. إن السؤال يفـرض نفسـه عليـه وهـو يعمل عملا ما قائلا: "حسن سيكون عنـدك سـتة آلاف فـدان في أرقـى منطقـة، وثلاثمئة حصان. وماذا بعد؟ حسن ستكون أكثـر شـهرة مـن جوجـال، وبوشـكين، وشكسبير، وموليير، بل وكل كُتاب العالم. وماذا بعد؟".

تبدأ مرحلة في حياة تولستوي، أقل ما يقال فيها: أنها عـذاب متواصـل، وعـدم قدرة على مواصلة الحياة بسبب الإحساس بأن كل سعادة أو تعاسة في هـذه الحيـاة ما هي إلا خدعة كبيرة. والسؤال بداخله عن معنى أعمـق وأدوم لا يفـارق كيانـه، فلا هو يستطيع أن يتجاهله، ولا هو قادر على مواصلة الحياة كما كانت باستبعاده،

ولا هو قادر على الإجابة عليه: "ما نتيجة أي فعل أقوم به اليوم أو غدًا؟ ما هي نتيجة حياتي كلها؟ هل هناك أي معنى للحياة سيبقى ولا يفنى بقدوم الموت المحقق الذي ينتظرني؟".

ويعبر عن هذا أيضًا بقوله: "بحثت عن إجابة لأسئلتي في كل فروع المعرفة التي اكتشفها البشر. بحثت لفترة طويلة وبكد عظيم. لم أبحث بقلب فاتر أو لمجرد حب الاستطلاع، ولكن كنت أبحث وأنا يشملني العذاب، ولا يفارقني الإصرار ليل نهار، كإنسان يُحتضَر، ويبحث عن مخرج للنجاة. ولكنني لم أجد شيئا".

وهنا يلخص تولستوي إجابات العلم عن ظاهرة الحياة، فهي إجابات تصف هذه الظاهرة، وتصف ظاهرة توقف الحياة من خلال توقف أجهزة الإنسان جميعًا. ومعها تختفي من هذه الحياة تساؤلاته، وكل ما كان العقل يفكر فيه. أما الفلسفة- كما يوضح- فإنها تقول: إن الوجود كله هو وجود مطلق، ولا يمكن الإحاطة به. والإنسان نفسه هو جزء غامض من هذا الوجود الغامض.

لكن شيئا من هذه العلوم لا يعطي إجابة عن تساؤلاته: ما معنى الحياة؟ وما الذي لا ينتهي بقدوم الموت؟، "فلأحاول أن أجد الإجابة من الناس حولي، طالما أني لم أجدها في الكتب"! هكذا قال تولستوي لنفسه، بعد ثلاث سنوات متواصلة من القراءة الدءوب في كل العلوم.. ليست مجرد قراءة.. كان كصريع من الظمأ يبحث عن نقطة ماء وسط الصحراء.

وبنفس الروح التفت إلى الناس.. علّه يجد دليلا.. فوجد معظم الناس في حالة من "الهروب" من الإجابة عن السؤال عن معنى الحياة. وهم حسب تصنيفه ينقسمون إلى أربعة أنواع:

الأول: يهرب من خلال الاكتفاء بالجهل، ولا يسعى للمعرفة.

النوع الثاني: يهرب من خلال منهج في الحياة يجعل الهدف منها هو اللذة (Epicurianism).

النوع الثالث: يتسم- كما يقول- بالشجاعة والقوة؛ لأنه يعرف أن الحياة كلها شرٌّ، ولا طائل من ورائها، فيرفضها، ويُقدم على التخلص منها.

أما الصنف الرابع فهو "ضعيف"؛ لأنه يعرف أن الحياة كلها "عبث وعدم"، ورغم ذلك فإنه يفتقد الشجاعة للتخلص منها.

وقد صنَّف تولستوي نفسه في النوع الرابع؛ لأنه يتعذب، ولا يجد معنى للحياة؛ ثم هو أيضًا لا ينتحر.

وفي هذا الوقت من تجربته، كان تولستوي لا يعرف لماذا لا يُقدم على الانتحار، بالرغم من أن الفكرة راودته كثيرًا. وكان كل العذاب واليأس داخله، يدفعه لأن يمسك بحبل ليخنق نفسه، أو يُمسك مسدسه، ويطلق رصاصة واحدة، فينهي بها عذابه! فكان يتجنب وجده مع "حبل، أو مسدس" في أي مكان!

تحوّل تولستوي من البحث في الكتب، ومن البحث بين أفراد طبقته، إلى العامَّة، فلمس شيئا ما بينهم، أشعره بأنهم يعيشون معنى الحياة، حتى لو كانوا غير قادرين على التعبير عن هذا المعنى. ويكفي أنهم سعداء، راضون بالحياة على الرغم من أنهم ينقصهم الكثير من رفاهية الماديات التي تتمتع بها طبقة المثقفين والأثرياء. وهم لا يرفضون الحياة، ولا يرونها عبثا مثل الطبقات التي يعيش بينها.

شعر تولستوي بالراحة للعيش وسط هؤلاء البسطاء. لكنه كان يشعر بأن هناك نوعًا من المعرفة يحتاج إليه، ولم يجده بعد.

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في حياته، وجد فيها شيئا كان بمثابة اكتشاف عظيم.. أيقن أن الإجابة عن تساؤله الأساسي عن المعنى الذي لا يحطمه الموت؟

لا يمكن أن توجد إلا في "العقيدة": المعنى الذي لا يموت، هو توحد الإنسان مع ما لا يموت.. مع الله، بعقله.. بفهمه[9].

أدرك تولستوي الآن، بل أيقن أن هناك نوعًا من المعرفة، تختلف عن "المعرفة العقلية" أو الذهنية.. لأن معرفة العقل تتعامل مع كل ما هو مؤقت.. وهي مصدر الحقيقة عن كل ما هو مؤقت.. لكنها لا يمكن أن تكون مصدرًا للمعرفة عما هو خالد.. عما لا ينتهي بالموت.. وهنا يقول تولستوي: إذا غاب عن الإنسان الفهم والبصيرة بأن كل ما هو مؤقت ليس إلا نوعًا من الوهم؛ فإنه لن يؤمن إلا بما هو مؤقت. أما إذا رأى ببصيرته أن كل ما هو موقوت ليس إلا وهم، فحينئذ سيؤمن بما هو باقٍ ودائم.

بهذا اليقين انطلق يبحث في المعرفة الدينية المسيحية من خلال مَنْ حوله من رجال الدين. كان يسألهم عن إجابة لمعنى الحياة كما يعيشونها.. لكن لأن الأمر بالنسبة له لم يكن مجرد "كلام"، أو "أشكال"، فإن شيئا جوهريًا جعل تولستوي يدرك أن نوع العقيدة والمعرفة التي يريد أن يحياها لا توجد عند هؤلاء. فهم- كما رآهم- لا يعيشون حياة يُطبِّقون فيها ما يقولونه.. إنهم مثل كل من لا عقيدة لهم. بل ربما أكثر حرصًا على حياة المادة والثراء والشهوات، وربما السلوك غير السوي. وهنا يخبو عند تولستوي الأمل الذي كان ولد داخله بأنه على وشك أن يجد إجابة لتساؤلاته .. بل حيْرته.. بل بحثه بالروح والعقل والقلب والجوارح.. ليس بحثا عن إجابة سؤال، بل بحث عن الحياة نفسها.

---

[9] المقصود بتوحد الإنسان مع الله، ليس وحدة الوجود التي قال بها غلاة الصوفية، وتعد إلحادًا في دين الله. ويعني القائلون بها: اتحاد الذات الإلهية مع الذات البشرية. ولكن المقصود بها التوحد مع أوامره، وأحكامه، وتعاليمه، ووحيه، وأوليائه.

ماذا يفعل الآن، وقد طرق كل الأبواب بشدة، ولم يُفتحْ له؟

مرحلة جديدة من العذاب.. استنفد فيها كل ما يستطيع أن يفعله بنفسه.. فإذا به يدعو الله، "أدعو من أبحث عنه، علّه يساعدني. وكلما دعوته بدا لي أنه لا يسمعني. ولا يوجد من ألجأ إليه أبدًا". "وبقلب ملئ بالحزن، توجهت من جديد أصرخ: يا إلهي! رحمتك! أنقذني! أرني الطريق"..

بدا له أيضًا أنه ليس هناك من مجيب، وأن الحياة قد وصلت به إلى نهايتها.. وفي قمة اليأس يتطرق إلى ذهنه خاطر جديد: "إن المفهوم عن الله، ليس هو الله"، "أنا أبحث عن الله، الذي بدون وجوده لا توجد حياة.. ها هو.. الله.. هو الحياة.. أن أعرف الله، وأن أحيا: هو معنىً واحد.. الله هو معنى الحياة". "وبأقوى من أي لحظة أخرى في حياتي، أشرق كل شيء داخلي ومن حولي بالنور.. ولم يفارقني هذا النور أبدًا".

كانت هذه لحظة رائعة وفاصلة في حياة تولستوي.. لحظة ميلاد حقيقي، سبقتها آلام وآلام.. آلام المخاض.. كل لحظة منها كان يشعر بعقله الإنساني أنها تأخذه إلى مرحلة جديدة من اليأس والضياع.. وكانت في الواقع تقربه من لحظة الميلاد العظيم. وتبدأ رحلة جديدة لكشف رقائق أخرى من الزيف كانت تحيط بأشياء كثيرة حوله.. ومثل كل مرحلة في حياته يقتحم تولستوي دائرة المعرفة بحب وصدق وإخلاص.. وبنفس القوة يكتشف بنفسه ما هو حقٌّ، وما هو زيف.

بكل الحب والنور، وعنفوان الحياة الحق المتدفقة، يريد تولستوي أن تكون حياته كلها تعبيرًا عن عقيدته.. وأول أساسيات العقيدة أن يكون في طلب لمدد من الحياة، من أصل الحياة. وذلك من خلال إقامة الصلاة.. فيذهب إلى الكنيسة بروح الحب، والرغبة في الالتزام، والاحترام لتعاليم الدين المسيحي.. لكنه يجد

أشياء كثيرة في الطقوس، لا يعرف لها معنى.. فيحاول هو بنقائه أن يُضفي عليها معنىً ومفهومًا من داخله..

لكن الوقت يمضي به، وبداخله إحساس بأن هذه التعاليم يختلط فيها "الحق" بالـ"زيف".. فكيف يجد الخط الفاصل بينهما؟ لا أحد يستطيع أن يدله.. والمفهوم الشائع هو إضفاء القدسية على الكنيسة. ويبررون ذلك بأنهم يعتبرونها رمزًا "للتجمع بالحب".. لكن ها هو يرى الطوائف المختلفة يتهم بعضها بعضًا بالكفر.. فأين هو هذا الحب؟

وحين يسأل أحدٌ عن معنى من معاني الطقوس، يُقال له: إن الطاعة واجبة، سواء أفهم، أو لم يفهم!

إجابة لم يسترح لها تولستوي، وشعر أنه يكذب على نفسه إن استمر في فعل أشياء قد حاول بكل طاقته أن يجد لها معنىً فلم يجد! وبدأ رحلة جديدة، يقرأ فيها الإنجيل، ويحاول أن يفهمه بنفسه. وكلما قرأ وبحث، اكتشف أن هناك طبقات وطبقات من "الدين الخاطئ"، الذي يُروِّج له رجال الدين، ويفرضون فيه سلطاتهم على الناس، دون أن يكون لما يقولون سند حقيقي من تعاليم المسيح. وهذا المنهج الذي اتبعه، استطاع به فصل الغث عن الثمين في كل شيء حوله.. في نفسه أولا.. في مصادر المعرفة.. فيما يقول الناس ويفعلون.

ويبرز في منهجه هذا نقاء القلب، فلم يستطع قط أن يكون منافقا أو كاذبًا فيما يعتقد.. وحتى حين أخذته ثقافة المجتمع من حوله، ولمع بريقها بزيف الشهرة والمال، فإن صوت الداخل أخذه إلى الحقيقة.

وكان منهجه يحترم العقل، ولا يقبل ما لا يقبله عقله. فأنقذه صوت الداخل أيضًا من أن يكون سجين "معرفة العقل" وحدها.. بل فتح له مصدرًا لمعرفة

أخرى، هي معرفة الروح التي تعلو معرفة العقل، ولا تتناقض معها.

ومنهجه العمل، فلم يتخاذل عن البحث والكد والجهد.

كان ثمار تجربته: أن كل ما تعلمه- حتى من قبل ميلاده الحقيقي، ترجمه في النصف الأخير إلى سلوك، يُعَبِّر فعلا عن معنى الحياة.. فبأمواله ساعد الكثيرين والكثيرين من الفقراء.. وبعقله- ما تحولت العقيدة عنده إلى شيء ينافي العقل، بل هو يؤكد على أنه من الدين القويم أن يلحق الإنسان بكل علوم عصره.. وبقدرته الأدبية ترك كتابات دينية، يفيد منها كل إنسان يريد أن يفرق بين الحق والزيف.

ومن أهم ما يقدمه اعتراف تولستوي أن:

الحياة الروحية تُعاش، لا تُلقن.

وكسب الحياة يكون بخدمة الناس، لا باعتزالهم.

وفهم الكتاب المقدس هو بحرية العقل، ونقاء القلب، لا بالترديد الأعمى.

٣. ترجمة سليم قبعين

سليم قبعين، كاتب فلسطيني، ولد بالناصرة سنة (١٨٧٠م). تلقى دراسته في المدرسة الروسية بالناصرة، وكان من أوائل الخريجين بهذه الثانوية. وبعد تخرجه زاول التعليم، وتولى التدريس في عدد من المعاهد والمدارس في مصر.

تزوج من مواطنةٍ روسيةٍ. وكان يتقن اللغة الروسية. ولقلمه الفضل في ترجمة العديد من المؤلفات الروسية إلى اللغة العربية. كان يقرأ الكثير، ويعلق على ما يقرأ في مجلة "الجامعة" التي أسسها "أنطون فرح" في الإسكندرية.

وإبّان الحكم العثماني، انضم إلى حركة المعارضة العربية، واضطر تحت التهديد للجوء إلى مصر سنة (١٨٩٧م).

وكان أيضا ينشر أبحاثه في صحف: المقطم، والمؤيد، والأخبار، والمحروسة. وفي هذه المقالات عرّف القراء بكبار الكتاب الروس مثل: تورجنيف، وبوشكين، وجوركي، وغيرهم.

أصدر في القاهرة عددًا من الصحف مثل: الأسبوع (١٩٠٠م)، وعروس النيل (١٩٠٣م)، والإخاء (١٩٢٤م). كما أصدر سلسلة الروايات التي صدر العدد الأول منها سنة (١٩٠٩م).

كان يقوم برحلة كل عام، وينشر خواطره ومشاهداته في هذه الرحلة عند

عودته.

كما كان يعتبر نفسه من أتباع مذهب تولستوي. ومن أعماله:

١. **إنجيل تولستوي وديانته**. عرَّبه عن الروسية. مطبعة الأخوة المصرية، ١٩٠٤م.

٢. **أنشودة الحكم**، تأليف: تورجنيف، معرب.

٣. **تاريخ آل رومانوف**، (١٩١٢م).

٤. **تاريخ الحرب العثمانية الإيطالية**. طبع مصر، (١٩١٢م).

٥. **حقوق المرأة في الإسلام**. تأليف: أحمد بك أجايف، الكاتب الروسي. مطبعة الجمهور، (١٩٠٥م).

قال معربه في المقدمة: إنه احتمل مشاق تعريبه، والإنفاق على طبعه؛ ليطلع عليه إخوانه من مسلمي الشرق؛ فيعلموا أن الناشئة الإسلامية في روسيا، تشكو نفس شكوى الناشئة الإسلامية المصرية؛ من سوء حالة المرأة المسلمة؛ وحرج مركزها في المجتمع الإنساني.

٦. **حِكَم النبي ﷺ**- لتولستوي. معرب، طبع مصر، (١٩٠٨م)[١٠].

٧. **الدستور والأحرار**. طبع مصر، (١٩٠٨م).

٨. **سياحة في روسيا**- (صغير)، طبع مصر.

٩. **عبد البهاء والبهائية**، القاهرة، (١٩٢٣م).

١٠. **لحن كريتسر**، قصة من تأليف: تولستوي. ترجمها من اللغة

---

[١٠] هو كتابنا هذا. وصدرت منه الطبعة الثانية في سنة ١٩١٥م. والطبعة الثالثة سنة ١٩٨٧م، عن مصرية للنشر والتوزيع، القاهرة. والطبعة الرابعة عن دار الملوحي للطباعة، ١٩٩٧م.

الروسيّة إلى اللغة العربية في عام (١٩٠٣م)، في القاهرة.

١١. **مذهب تولستوي**. معرب، طبع مصر، (١٩٠٤م)[١١].

١٢. **مملكة جهنم**. وهي قصة خيالية لفيلسوف الروس تولستوي. وأضاف المعرب إلى هذه القصة مقالة عن مبادئ تولستوي الدينية، نقلها عن مجلة روسية.

١٣. **مصرع القيصر وأهل بيته**. معرب عن الروسية. مطبعة العمران، (١٩٢٢م).

١٤. **نخب الأدب**. من مبتكرات مكسيم غوركي، معرب عن الروسية. طبع مصر، (١٩٠٧م). وهو في الإصلاح السياسي والاجتماعي.

ولسليم قبعين تآليف أخرى مذكورة في جامع التصانيف الحديثة[١٢].

---

[١١] انظر مقالة المقتطف عن تولستوى في مجلتها، الجزء ٣٧، العدد السادس، سنة ١٩١٠م.

[١٢] معجم المطبوعات: إليان سركيس، مح٢، ص١٤٩٣-١٤٩٤. وموقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، الهيئة العامة للاستعلامات، السلطة الوطنية الفلسطينية. الشبكة الدولية للمعلومات.



٤. كلمة المعرب

الرجل العظيم يحترم الرجل العظيم.

والنفوس الفياضة تصبو إلى نظرائها.

* * *

عرف قراء اللغة العربية ما اتصف به الفيلسوف الكونت "لاون تولستوي" من الجرأة، ودفاعه عن الحق الصراح، دون أن يخشى لومة لائم، أو نقمة ناقم، حتى كان يخاطب قيصر روسيا ورجال حكومته، مبينًا لهم حالة الرعية والبلاد، وما تحتاجه من الاصطلاحات التي غفلوا عنها.

والواقف على نظام السلطة في روسيا وأحكامها المطلقة، لا يسعه إلا أن يعجب بتلك الشجاعة الأدبية، الكامنة في جوانح الفيلسوف، وعدم رهبته تلك السلطة المطلقة.

رأى الفيلسوف تحامل جمعيات المبشرين في قازان[١٣]- من أعمال روسيا- على

---

[١٣] قازان: من أهم المدن الروسية. عاصمة ما يعرف اليوم باسم تتاريا. قام القيصر الروسي إيفان الرهيب بغزو قازان عام ١٥٧٢م. ولا تزال ذكرى هذا الحدث حاضرة حتى يومنا هذا، وهي تؤثر في العلاقة القائمة بين الروس والتتر، إذ إنَّ الروس يحتفلون في هذه المناسبة بالنصر، وأما التتر فلا يزالون يتألّمون لها. كما رافق غزو قازان بموجة من التخريب والتدمير، طالت كل من البيئة الثقافية والمادية. أمّا في الفترة ما بين غزو مدينة قازان، وتولّي أمبراطورة روسيا "كاترينا الكبيرة" السلطة في البلاد في عام ١٧٦٢م، فقد كانت السياسة الروسية تجاه المسلمين

الدين الإسلامي، ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أمورًا تنافي الحقيقة. تصور للروسيين تلك الديانة، وأعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقة؛ فهزته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة صغيرة، اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي محمد ﷺ، ذكرها بعد مقدمة جليلة الشأن، واضحة البرهان. وقال: هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية. وهي عبارة عن حِكَم عالية، ومواعظ سامية، تقود الإنسان إلى سواء السبيل، ولا تقل في شيء عن تعاليم الديانة المسيحية. ووعد بأن سيضع كتابًا كبيرًا يبحث فيه أبحاثًا إضافية بعنوان "محمد"[١٤].

ولما اطلعت على هذه الرسالة، راقني ما جاء فيها من الحقائق الباهرة، والمقاصد الشريفة، فدفعتني الغيرة على الحق لنقلها إلى اللغة العربية. وقد عانيت المشاق في رد الأحاديث إلى أصولها العربية التي وردت فيها.

وإني أرجو أن تصادف خدمتي هذه القبول الحسن عند عامة المسلمين. وهذا ما أتوخاه في هذه الهدية التي أزفها للشرقيين عمومًا. وذاك حسبي وكفى.

سليم قبعين

مطبوعة بأعمال قمع وتنكيل منظمة، وبطمس وإلغاء الثقافة الإسلامية ضمن المناطق الخاضعة للروس. وكانت نتيجة ذلك هجرة واسعة للتتر نحو آسيا الوسطى وإلى الدولة العثمانية. بيد أنّ الامبراطورة كاترينا الكبيرة غيّرت هذه السياسة تغييرًا جذريًا. وقد عُرفت فترة حكمها بتسامح بالغ تجاه المسلمين. فمنعت على سبيل المثال التبشير المسيحي للمسلمين، وهدم المساجد. لقد كانت استراتيجيتها تقوم على كسب مواطنيها المسلمين، وعلى وجه الخصوص كسب رجال الدين المسلمين. (موقع قنطرة ٢٠٠٥).

[١٤] لا نعلم أن تولستوي وفق إلى وضع هذا الكتاب.

٥. مَنْ هو محمد؟

للفيلسوف تولستوي

قال الفيلسوف تولستوي تحت هذا العنوان ما هو بالحرف الواحد:

"إن محمدًا هو مؤسس الإسلامية ورسولها. تلك الديانة التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس"[١٥].

ولد النبي محمد في بلاد العرب سنة (٥٧٠م) بعد ميلاد المسيح من أبوين فقيرين. وكان في حداثته راعيًا. ومالَ منذ صباه إلى الانفراد في البراري والأمكنة الخالية؛ حيث كان يتأمل بالله وخدمته.

إن العرب المعاصرين لمحمد عبدوا أربابًا كثيرة، وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها، فأقاموا لها أنواع التعبد، وقدَّموا لها الضحايا المختلفة، ومنها الضحايا البشرية[١٦]. ومع تقدم محمد في السن كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة، وأن هناك إلهًا واحدًا حقيقيًا لجميع الشعوب.

وقد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمد، حتى قام في نفسه أن يدعو أمته

---

[١٥] مرَّ على هذا الإحصاء أكثر من قرن من الزمان، زاد فيه عدد المسلمين أكثر من مليار.

[١٦] لم يثبت أن العرب في جاهليتهم كانوا يقدمون الضحايا البشرية للأصنام، وإنما كانوا يئدون البنات خوف العار.

ومواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الراسخ في فؤاده[17]. وقد دفعه عامل داخلي إلى أن الله اصطفاه لإرشاد أمته[18]، وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة، وإنارة أبصارهم بنور الحق. فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد الأحد بحسب ما أُوحي إليه، ومقتضى اعتقاده الراسخ.

وخلاصة هذه الديانة التي نادى بها محمد هي أن الله واحد لا إله إلا هو، ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة، وأن الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائي متوقف على الإنسان نفسه، فإذا سار حسب شريعة الله، وأتم أوامره، واجتنب نواهيه؛ فإنه في الحياة الأخرى يؤجر أجرًا حسنًا. وإذا خالف شريعة الله، وسار على هواه؛ فإنه يعاقب في الحياة الأخرى عقابًا شديدًا. وأن كل شيء في هذه الدنيا فانٍ زائل، ولا يبقى إلا الله ذو الجلال. وأنه بدون الإيمان بالله، وإتمام وصاياه، لا يمكن أن تكون حياة حقيقية. وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضًا. ومحبة الله تكون في الصلاة، ومحبة القريب تقوم في مشاركته في السراء والضراء، ومساعدته والصفح عن زلاته. وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضي عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسانية، والابتعاد أيضًا عن الملذات الأرضية، وأنه يتحتم عليهم أن لا يخدموا الجسد ويعبدوه، بل يجب عليهم أن يخدموا الروح، وأن يزهدوا في الطعام

---

[17] أمر الله سبحانه محمدا ﷺ بالدعوة فقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً} (الأحزاب:٤٥-٤٦).

[18] أرسل الله تعالى روح القدس جبريل- عليه السلام، إلى محمد ﷺ، وهو يتعبد في غار حراء، يخبره بأن الله اصطفاه ليبلغ رسالة ربه إلى العالمين. ومما نزل عليه: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (المائدة:٦٧). وقال سبحانه: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً} (النساء:١٦٣).

والشراب، وأنه محرم عليهم استعمال الأشربة الروحية المهيجة، ومحتم عليهم العمل والجد. وما شابه ذلك.

ومحمد لم يقل عن نفسه: إنه نبي الله الوحيد. بل اعتقد أيضًا بنبوة موسى، والمسيح. وقال: إن اليهود والنصارى لا يُكرهون على ترك دينهم، بل يجب عليهم أن يتمموا وصايا أنبيائهم.

وفي سني دعوة محمد الأولى، احتمل كثيرًا من اضطهاد أصحاب الديانة القديمة، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق. ولكن هذه الاضطهادات لم تثنِ عزمه، بل ثابر على دعوة أمته.

وقد امتاز المؤمنون كثيرًا عن العرب بتواضعهم، وزهدهم في الدنيا، وحب العمل، والقناعة. وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم في الإيمان لدى حلول المصائب بهم.

ولم يمضِ على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احترامًا عظيمًا، ويعظمون قدرهم. وغدا عدد المؤمنين يتزايد يومًا فيومًا.

غير أن أصحاب الغيرة- من أنصار النبي، كانوا ينظرون إلى الوثنيين المحيطين بهم وفسادهم بعين الغضب والاستياء، فدفعتهم غيرتهم على الحق إلى التشدد في الدعوة إلى دين الإسلام والاعتراف بوحدانية الله. ومع أن هؤلاء الأنصار لم يبيحوا سفك الدماء للحصول على الأموال أو غيرها من متاع الدنيا من جانب؛ فإنهم من الجانب الآخر لم يبيحوا التهاون أو التخاذل أمام أولئك الذين أصروا على البقاء في الضلال.

وإذا كان انتشار الإسلام انتشارًا كبيرًا على يد هؤلاء لم يُرقْ بعضًا من البوذيين والمسيحيين؛ فإن ذلك لا ينفي حقيقة أن المسلمين اشتهروا في صدر

الإسلام بالزهد في الديانة الباطلة، وطهارة السيرة، والاستقامة والنزاهة؛ حتى أدهشوا المحيطين بهم بما هم عليه من كرم الأخلاق، ولين العريكة والوداعة.

ومن فضائل الدين الإسلامي: أنه أوصى خيرًا بالمسيحيين واليهود، ولاسيما قسوس[19] الأولين. فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم؛ حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج من المسيحيات واليهوديات، مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن. ولا يخفى على أصحاب البصائر النيرة ما في هذا من التساهل العظيم.

ومما لا ريب فيه أن النبي محمدًا من عظام المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخرًا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتفضل عيشة الزهد، ومنعها عن سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية. وهو عمل عظيم، لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة. ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام.

---

[19] قسوس: جمع قس. وهو رجل الدين المسيحي.

٦. حِكَم النبي محمد

للفيلسوف تولستوي

عرَّب عبد الله السهروردي في الهند كتاب أحاديث النبي محمد ﷺ، واتخذ لنفسه عنوانا الآية القرآنية التالية: **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}** (التوبة:٣٢)[٢٠].

والأحاديث المذكورة في هذه الرسالة اختارها من كتاب عبد الله السهروردي الفيلسوفُ تولستوي، وقال إنها لا تخالف في شيء تعاليمَ الديانات الأخرى، التي ترشد إلى الحق، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر[٢١].

---

[٢٠] أورد المترجم هذه الآية هكذا: (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). وليس في القرآن الكريم آية بهذا النص، ولكنه جمع فيها بين الآية رقم (٣٢) من سورة التوبة، والآية رقم (٨) من سورة الصف. فأثبتنا إحداهما.

[٢١] جميع الأنبياء دينهم واحد، وهو الإسلام. ولذا يتفقون في العقائد والأخلاق، يقول الله تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} (الشورى:١٣). ويقول- عز اسمه: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة:١٣٦). وإنما يختلف الأنبياء في الشرائع لاختلاف الزمان والمكان والمصلحة. يقول اله سبحانه: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ

ونقل تولستوي من مقدمة السهروردي قوله:

"إنا لله، وإنا إليه راجعون. إننا جميعنا أبناء الله[٢٢]، وحياتنا تنحصر في التقرب إلى الله تعالى. إن شرارة الإيمان مختفية في قلب كل إنسان. وإن ديننا القويم يقدم رجاء الخلاص لجميع أتباعه والذين يدخلونه. وإن النفس التي تكرم القدير العظيم- تلك النفس التي تسعى إلى معرفة الحق، وتسير في طريق الصلاح- ستحظى بالحياة الأبدية، والغبطة الدائمة".

الأحاديث النبوية:

هذه الأحاديث اختارها الفيلسوف تولستوي من كتاب عبد الله السهروردي، وعرَّبها من الإنجليزية إلى الروسية، ودعاها **"حِكَم النبي"**. وفي الأصل الروسي

تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (المائدة:٤٨).

[٢٢] ورد في الكتاب المقدس- بعهديه القديم والجديد- إطلاق أبناء الله على جماعة المؤمنين. ففي سفر التكوين (٦:٢): "أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتّخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا". وفي الرسالة إلى رومية (٨:١٤): "لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله". وفي الرسالة إلى غلاطية (٣:٢٦): "لأنكم جميعًا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع".

وقد أنكر الله على اليهود والنصارى ادعاءهم اختصاصهم بأنهم أبناء الله، فقال سبحانه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (المائدة:١٨). ولم يرد في الكتاب والسنة نسبة بنوة أحد من البشر لله، حتى لو كان على وجه المجاز أو الكرامة؛ وذلك تنزيهًا لله عن الولد مطلقًا. وإنما روي عن النبي ﷺ: "الخلق كلهم عيال الله. فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله" (أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٣٣)، والأوسط (٥٥٤١). وأبو يعلى في المسند (٣٣١٥). والبيهقي في الشعب (٧٤٤٤). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٥٩٠).

أحاديث غير هذه، لم نقف عليها في كتب الأحاديث. ويظهر أنها من حِكم الأولياء أو العرب، التي ينسبها الإفرنج في كتبهم إلى النبي ﷺ. يقول محمد ﷺ:

- "اللهم ارزقني حبَّك، وحبَّ من ينفعني حبه عندك"[٣٣].
- "قل الحقَّ، وإن كان مرًا"[٢٤].
- "انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا". فقال رجل: يا رسول الله! أنصره مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ فقال: "تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه"[٢٥].
- "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها، أو أغفر. ومن تقرب مني شبرًا، تقربت منه ذراعًا. ومن تقرَّب مني ذراعًا تقربت باعًا[٢٦]. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة[٢٧]. ومن لقيني

---

[٣٣] أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ (٣٤٩١). وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الدعاء، ما ذكر عن قوم مختلفين مما دعوا به (٢٩٥٩٢). وضعفه الألباني.

[٢٤] أخرجه أحمد في المسند، من حديث أبي ذر (٢١٥٥٦). وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها (٣٦١). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٦٦).

[٢٥] أخرجه البخاري، كتاب الإكراه، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٥٥٢).

[٢٦] الباع هو طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره. قال الباجي: وهو قدر أربع أذرع. وهذا حقيقة اللفظ. والمراد بها في هذا الحديث المجاز (شرح النووي على مسلم ١٢/١٧).

[٢٧] في فتح الباري، لابن حجر العسقلاني (٥١٣/١٣): "وصف سبحانه نفسه بأنه يتقرب إلى عبده، ووصف العبد بالتقرب إليه، ووصفه بالإتيان والهرولة. كل ذلك يحتمل الحقيقة والمجاز. فحملها على الحقيقة يقتضي قطع المسافات، وتداني الأجسام. وذلك في حقه تعالى محال. فلما استحالت الحقيقة، تعين المجاز لشهرته في كلام العرب. فيكون وصف العبد بالتقرب إليه شبرًا وذراعًا، وإتيانه ومشيه معناه التقرب إليه بطاعته، وأداء مفترضاته ونوافله. ويكون تقربه سبحانه من عبده، وإتيانه والمشي، عبارة عن إثابته على طاعته، وتقربه من رحمته. ويكون قوله: "أتيته هرولة" أي أتاه ثوابي مسرعًا".

يقُراب الأرض[28] خطيئة، ثم لا يشرك بي شيئا، لقيته بمثلها مغفرة"[29].

- "اللهم أحيِّني مسكينا، وتوفني مسكينا، واحشرني في زُمْرة[30] المساكين"[31].
- "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[32].
- "حُفَّت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات"[33].
- "الحلال بيِّن، والحرام بيِّن"[34].
- "ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء"[35].

---

[28] قراب الأرض خطيئة: هو بضم القاف على المشهور. وهو ما يقارب ملئها (شرح النووي على مسلم ١٢/١٧).

[29] أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧). وابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل العمل (٣٨٢١).

[30] الزمرة: الجماعة. وأراد بهذا الحديث التواضع والإخْبات، وأن لا يكون من الجبارين المتكبرين. أي خاضعاً لك يا رب! ذليلاً غير متكبر! وليس يراد بالمسكين هنا الفقير المحتاج. وقد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الفقر (لسان العرب ١٣/٢١١).

[31] أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥٢). وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء (٤١٢٦). والحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق (٧٩١١). وصححه الألباني في الإرواء (٨٦١).

[32] أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣). وأخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٤٥).

[33] أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات (٦١٢٢). ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢). واللفظ له.

[34] أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢). ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

[35] أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة (٤٩٤١). والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (١٩٢٤). وصححه الألباني.

- سأل رجل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عَرَفْتَ، ومَنْ لَمْ تَعْرِف"[٣٦].
- "لا تُميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب"[٣٧].
- "كنت كنزًا مخفيًا، فأردت أن أُعرف، فخلقت الخلق فعرفوني"[٣٨].
- "أفضل الصدقة صلاح ذات البين"[٣٩].
- "أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها؛ فهي زانية، وكل عين زانية"[٤٠].
- "الجليس الصالح خير من الوحدة. والوحدة خير من جليس

---

[٣٦] أخرجه البخاري، باب إطعام الطعام من الإسلام، كتاب الإيمان (١٢). وأخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٣٩).

[٣٧] قال الألباني: "لا أصل له". السلسلة الضعيفة (١٥٤/٢)، حديث رقم (٧٢١).

[٣٨] قال العجلوني في كشف الخفاء (مج٢، ص١٠١١): "كنت كنزا لا أعرف؛ فأحببت أن أُعرف؛ فخلقت خلقًا؛ فعرفتهم بي فعرفوني". وفي لفظ: "فتعرفت إليهم. فبي عرفوني". قال ابن تيمية: "ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يُعرف له سند صحيح، ولا ضعيف". وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في اللآلئ، والسيوطي، وغيرهم. وقال القاري: "لكن معناه صحيح، مستفاد من قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات:٥٦)، أي ليعرفوني. كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما". والمشهور على الألسنة: "كنتُ كنزا مخفيًا؛ فأحببت أن أعرف؛ فخلقت خلقا؛ فبي عرفوني". وهو واقع كثيرا في كلام الصوفية، واعتمدوه وبنوا عليه أصولا لهم".

[٣٩] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، السادس و السبعون من شعب الإيمان و هو باب في الإصلاح بين الناس (١١٠٩٢). وعبد بن حميد في مسنده، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (٣٣٥). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٣٩).

[٤٠] أخرجه أحمد في المسند، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (١٩٧٢٦). والنسائي، كتاب الزينة، ما يكره للنساء من الطيب (٥١٢٦). وابن خزيمة، كتاب الصلاة، باب التغليظ في تعطر المرأة عند الخروج ليوجد ريحها و تسمية فاعلها زانية (١٦٨١). وصححه الألباني في غاية المرام (٨٤).

السوء. وإملاء الخير خير من السكوت. والسكوت خير من إملاء الشر"[41].

- "زنا العين النظر، وزنا اللسان[42] المنطق. والنفس تمنى وتشتهي"[43].
- "من كظم غيظًا، وهو يَقدر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا"[44].
- "القبر أول منزل من منازل الآخرة"[45].
- "أفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله ﷻ"[46].
- "إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه"[47].
- "إن الله يحب أن يرى عبده ساعيًا في طلب الحلال"[48].

---

[41] أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب فضائل القرآن، محنة أبي ذر ﷺ (٥٤٦٦). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨٥٣).

[42] في الأصل: "النفس". والصواب ما أثبت.

[43] أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج (٥٨٨٩). وأخرجه مسلم في القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره (٢٦٥٧).

[44] أخرجه القضاعي في مسند الشهاب، باب: من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه، ملأه الله أمنا وإيمانا (٤٣٧). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٩١٢).

[45] أخرجه أحمد في المسند، من حديث عثمان بن عفان ﷺ (٤٥٤). والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ (٢٣٠٨). وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧). وحسنه الألباني (حديث رقم: ١٦٨٤ في صحيح الجامع الصغير وزيادته).

[46] أورده المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم (١١٢٦٥). وعزاه إلى الديلمي في الفردوس. وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٩١).

[47] أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الزجر عن بصق المصلي أمامه (٩٢٤). وحسنه الألباني (انظر حديث رقم: ١٦١٤ في صحيح الجامع).

- "من يصبر على الرزية يعوضه الله"[49].
- "آفة الدين ثلاثة: فقيه فاجر، إمام جائر، مجتهد جاهل"[50].
- "إنما النساء شقائق الرجال"[51].
- "آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله"[52].
- "الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"[53].
- "الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ"[54].
- "اعقلها وتوكلْ"[55].

---

[48] أورده المتقي الهندي في كنز العمال (٩٢٠٠). وعزاه إلى مسند الفردوس، عن علي. وحكم عليه الألباني بالوضع (السلسلة الضعيفة: ١٠).

[49] أورده المتقي الهندي في كنز العمال حديث (٤٣٥٨٧). وعزاه إلى البيهقي في الدلائل، وابن عساكر. وأورده ابن كثير في السيرة (٢٣/٤)، وقال: "هذا حديث غريب، و فيه نكارة، و في إسناده ضعف".

[50] أورده المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم (٢٨٩٥٤)، وعزاه إلى مسند الفردوس. والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٤). وحكم عليه الألباني بالوضع (السلسلة الضعيفة: ٨١٩).

[51] أخرجه أحمد في المسند، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٢٣٨). وأبو داود، بَاب فِي الرَّجُلِ يَجِدُ الْبِلَّةَ فِي مَنَامِهِ (٢٣٦). والترمذي، أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللا ولا يذكر احتلامًا (١١٣). وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة: ٢٨٦٣).

[52] أخرجه الدارمي، باب مذاكرة العلم (٦٢٤). وابن أبي شيبة، كتاب الأدب، باب تذاكر الحديث (٢٦١٣٩). وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة (١٣٠٣).

[53] أخرجه مسلم، كتاب الرضاع، بَاب خَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ (١٤٦٧).

[54] أخرجه موقوفا على أبي بكر: أحمد في مسنده، من حديث أبي بكر الصديق ﷺ (١٦). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[55] أخرجه الترمذي في السنن، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٧). وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل (٧٣١). وحسنه الألباني.

- "لا عبادة كالتفكير"[٥٦].
- "حبك للشيء يُعمي ويُصم"[٥٧].
- "لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٥٨].
- "أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل"[٥٩].
- "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدق؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: لله إصلاح ذات البين"[٦٠].
- "إن أول خلق خلقه الله ﷻ العقل، فقال له أقبل، فأقبل. ثم قال له: أدبر فأدبر. فقال: وعزتي وجلالي! ما خلقت خلقًا هو أحب إلي منك. بك

---

[٥٦] أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، مرفوعا عن علي، حديث رقم (١٨٠٣٨). وقل: "رواه الطبراني. وفيه أبو رجاء الحنطي. واسمه محمد بن عبد الله. وهو كذاب" (مجمع الزوائد ٥٠٢/١٠)

[٥٧] أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الهوى (٥١٣٠). وأحمد في المسند، حديث أبي الدرداء ﷺ (٢٧٥٨٨). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨٦٨). وصححه الأرنؤوط موقوفا على أبي الدرداء.

[٥٨] أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم (١٠٦)، بلفظ: "لا يستكمل عبد الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". وعزاه إلى أبي نعيم في المعرفة (كنز العمال ٤١/١). وهو في الصحيحين بلفظ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥).

[٥٩] أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، (٣٦٢٨). وأخرجه مسلم في أوائل كتاب الشعر (٢٢٥٦). كلاهما بلفظ: "أصدق كلمة". وأخرجه غيرهما بلفظ: "أشعر كلمة".

[٦٠] أخرجه أحمد في المسند، من حديث أبي الدرداء ﷺ (٢٧٥٤٨). وأبو داود، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين (٤٩١٩). وصححه الأرنؤوط.

آخذ، وبك أعطي، وبك أثيبُ، وبك أعاقب"[61].

- "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[62].
- "ارضَ بما قسم الله لك تكنْ أغنى الناس"[63].
- "إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال [والخَلْق]، فلينظر إلى من هو أسفل منه"[64].
- دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا نبي الله! لو اتخذتَ فراشًا [أوثر من هذا]؟ فقال: "مالي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها"[65].
- "خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرًا صابرًا. [ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرًا، ولا صابرًا]: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به.

---

[61] أخرجه الطبراني في الأوسط، من حديث أبي أمامة (٨٠٨٦). والبيهقي في الشعب، (٤٦٣٢). كلاهما بلفظ: "لما خلق الله العقل". وحكم عليه الألباني بالوضع، في تخريج مشكاة المصابيح (٩٧/٣)، حديث رقم (٥٠٦٤). وفي حديث: "أول ما خلق الله القلم...". وحكم عليه الألباني بالوضع في الضعيفة (١٢٥٣).

[62] أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٥٧٦٣). وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩).

[63] أخرجه أحمد في المسند، من حديث أبي هريرة (٨٠٨١). والترمذي، كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس (٢٣٠٥). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

[64] أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه (٦١٢٥). وأخرجه مسلم في أوائل الزهد والرقائق (٢٩٦٣)، وكلمة "والخلق" أثبتناها من الصحيح.

[65] مسند أحمد بن حنبل، من حديث عبد الله بن مسعود (٢٧٤٤). والمتن سقط منه كلمة "أوثر من هذا". وصححه الأرنؤوط.

ونظر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد الله على ما فضله به عليه"[٦٦].

- جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحبك، قال: "انظر ما تقول"! فقال: إني والله لأحبك. ثلاث مرات. قال: "إن كنت صادقًا فأعدَّ محفافًا[٦٧]. للفقرُ أسرعُ إلى مَن يحبني مِن السيل إلى منتهاه"[٦٨].
- "ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك"[٦٩].
- "امشِ ميلا. عُدْ مريضًا، وامش ميلين. أصلح بين اثنين"[٧٠].
- "أمط الأذى عن الطريق؛ فإنه لك صدقة"[٧١].
- "اتق الله. ولا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط. وإياك وإسبال الإزار!

---

[٦٦] سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٢). والمتن ليس فيه "ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا"، فنقلناها من السنن. وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (١٩٢٤).

[٦٧] لم ترد كلمة محفافًا في شيء من الكتب التي أخرجت الحديث، وإنما ورد "تِجفافا"، ومعناها: ما جُلِّلَ به الفرس من سِلاحٍ، وآلة تقيه الجِراحَ. وفرس مُجَفَّفٌ عليه تجفاف.وتجفيف الفرس أن تُلبسه التجفاف. وفي حديث الحديبية: "فجاء يقوده إلى رسول اللّه ﷺ على فرس مُجَفَّف"، أي عليه تِجفافٌ. وقد يلبَسُه الإنسان أيضا (النهاية في غريب الأثر ٤٧٥/١. لسان العرب ٢٨/٩). وقد كان هذا أكيدًا في بداية الدعوة، وقلة المؤمنين.

[٦٨] أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في فضل الفقر (٢٣٥٠). والحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق (٧٩٤٤). وغيرهما. وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٨٢٧).

[٦٩] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، السبعون من شعب الإيمان و هو باب في الصبر على المصائب (٩٧١٩). وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها (٣٦١). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٨).

[٧٠] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٩٧/٥). وابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان، باب في زيارة الإخوان (١٠١). وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٩٣٦).

[٧١] أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه (٢٨٢٧). ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩).

فان إسبال الإزار من المخيلة، ولا يحبها الله. وان امرءًا شتمك وعيَّرك بأمر هو فيك، فلا تعيِّره بأمر هو فيه، ودَعْه يكون وباله عليه، وأجره لك. ولا تسبنَّ أحدًا"[٧٢].

- قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟" قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه! فقال: "لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها"[٧٣].
- "من ظلم أجيرًا أجره، حبط عمله، وحرم عليه ريح الجنة"[٧٤].
- قال النبي ﷺ- وحوله جماعة من أتباعه: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفَّي منكم، فأجره على الله"[٧٥].
- "سيأتي زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه[٧٦]، تنزع الرحمة من قلوبهم، وتقل مكاسب الحلال، ويكثر الحرام"[٧٧].

---

[٧٢] أخرجه من حديث جابر بن سليم الهجيمي رضي الله عنه أحمد في المسند (٢٠٦٥١). والطيالسي في المسند (١٢٠٨). وأورده الألباني في الصحيحة (٧٧٠). وصححه الأرنؤوط أيضًا.

[٧٣] أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥٣). أخرجه مسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤).

[٧٤] مسند الحارث- زوائد الهيثمي، كتاب الصلاة، باب في خطبة قد كذبها داود بن المحبر على رسول الله ﷺ (٢٠٥).

[٧٥] أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١٨).

[٧٦] في الأصل "وسمه"، والصحيح ما أثبت.

- "عفوا تعف نساؤكم"[78].
- "علم لا ينفع، ككنز لا يُنفق منه"[79].
- "ليس من أخلاق المؤمن التملق، ولا الحسد، إلا في طلب العلم"[80].
- "زين الله السماء بثلاث: الشمس والقمر والكواكب. وزين الأرض بثلاث: العلماء، والمطر، وسلطان عادل"[81].
- "العلم إمام، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء"[82].
- "العالم إذا خرج من الدنيا، كالمصباح يخرج من بيت مظلم"[83].

---

[77] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، الثامن عشر من شعب الإيمان وهو باب في نشر العلم وألا يمنعه أهله (١٩٠٨). بلفظ: "يوشك أن يأتي على الناس زمان: لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدي، علماؤهم أشر من تحت أديم السماء. من عندهم يمدح الفتنة".

[78] أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة (٧٢٥٨). والطبراني في الأوسط، عن ابن عمر (١٠٠٢). وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٠٤٣).

[79] أخرجه أحمد في المسند، من حديث أبي هريرة (١٠٤٨١). والدارمي، باب البلاغ عن رسول الله ﷺ وتعليم السنن (٥٥٦). وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٨٠).

[80] أخرجه البيهقي في الشعب، الرابع والثلاثون من شعب الإيمان وهو باب في حفظ اللسان (٤٨٦٣). قال الألباني: موضوع. (انظر حديث رقم: ٤٩٢٦ في ضعيف الجامع).

[81] لم أقف على من أخرجه.

[82] قال الألباني: "رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم، من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي: حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن الحسن عنه. وقال: هو حديث حسن، ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفا. كذا قال- رحمه الله. ورفعه غريب جدا" (ضعيف الترغيب والترهيب ١٣/١).
وأورده أيضا في السلسلة الضعيفة (٥٢٩٣)، وحكم عليه بالوضع.

- "وواضع العلم عند غير أهله، كمقلد الخنازير الجوهر، واللؤلؤ، والذهب"[84].
- يقول الله ﷻ يوم القيامة: "يا ابن آدم! مرضتُ فلم تعدني! قال: يا رب! كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمتَ أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا رب! وكيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي"[85].
- "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا. واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا"[86].
- "من كذب فجر. ومن فجر كفر. ومن كفر دخل النار"[87].

---

[83] لم أقف على من أخرجه. وورد معناه عن سفيان الثوري، كما أورد أبو نعيم في حلية الأولياء (٢١١/٧)، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، ثنا محمد بن صالح بن دريج، ثنا محمد بن عبد المجيد التميمي، ثنا ابن عيينة قال: لما مات مسعر بن كدام، رأيت كأن المصابيح والسرج قد طفئت. قال سفيان: وهو موت العلماء".

[84] أخرجه ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤). قال الألباني: ضعيف جدًا (انظر حديث رقم: ٣٦٢٦ في ضعيف الجامع).

[85] أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٩).

[86] مسند الحارث- زوائد الهيثمي، كتاب الزهد، باب كيف العمل للدنيا والأخرة (١٠٩٣). من قول عبد الله بن عمرو بن العاص. وقال الألباني: "لا أصل له، وإن اشتهر على الألسنة" (السلسلة الضعيفة ٦٣/١).

[87] مسند أحمد بن حنبل، من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله تعالى عنهما (٦٦٤١). بلفظ: "قال: يا رسول الله! ما عمل النار؟ قال: الكذب. إذا كذب فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل- يعني النار". وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة (٤١٥٣).

دعاء النبي ﷺ:

- "يا حي يا قيوم! برحمتك أستغيث. اغفر لي ذنوبي، وأصلح لي شأني، وفرِّج لي همي برحمتك"[88].
- "اغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب العظيمة إلا الرب العظيم"[89].
- "احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يُرام، وارحمني بقدرتك عليّ، فلا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمت بها عليّ، قلَّ لك عندها شكري! وكم بلية ابتليتني بها، قلَّ لك عندها صبري؟ يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبدًا، ويا ذا النعماء التي لا تحصى عددًا، نجني مما أنا فيه، وأعني على ما أنا عليه، مما قد نزل بي بجاه وجهك الكريم"[90].

[88] أخرج بعضه الترمذي، كتاب الدعوات (٣٥٢٤). والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء (٢٠٠٠). وغيرهما. وليس فيها الجملة الأخيرة. وأورده الألباني في الصحيحة (٢٢٧).

[89] أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء (١٩٥٧). وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد". والبيهقي في فضائل الأوقات، برقم (٢٧)، ص١٣٠.

[90] أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة، من دعاء جعفر بن محمد، برقم (٧٤) (ص٩٩). وأورده المتقي الهندي في كنز العمال بلفظ قريب، برقم (٥٠١٤)، من كلام علي بن الحسين. وعزاه إلى ابن النجار. وأورده أيضا عن علي يرفعه، برقم (٣٤٤١).

٧. رأي تولستوى في الحجاب والحب والزواج

قال الفيلسوف تولستوي في الطلاق والحجاب:

"إن السبب في مسألة الطلاق التي تشغل الآن الرأي العام في أوروبة- هو التمدن الذي لم يقتبس الإنسان منه سوى الحمق والخلاعة. هذا هو السبب الحقيقي في ازدياد الطلاق نموًا كل يوم، فلا يمضي على زواج امرأة برجل ردحٌ من الزمن حتى تقول له: حاذرْ أن أتركك، وأمضي إلى حال سبيلي!

سرى ذلك من الربوع العالية في المدن إلى أكواخ الفلاحين، فالقروية لأقل شيء تقول لزوجها: خُذْ قمصانك وسراويلاتك[91]؛ لأني تاركة لك، وذاهبة مع حبيبي يوسف، الذي يفوقك حسناً وبهاءً!

هذا لأن المرأة خلعت ثياب الحشمة واحترام الزوج، وخرجت من دائرة الخضوع له، تلك الواجبات التي ينبغي أن تبقي عليها حتى انقضاء الأجل.

على الرجل أن يكد ويشتغل، وما على المرأة إلا أن تقيم في البيت؛ لأنها زوجة، أو بعبارة أخرى: لأنها إناء لطيف، سريع الإنثلام[92] والإنكسار.

---

[91] سراويلاتك: جمع سروال. والمراد به البنطال.

[92] الانثلام: ثَلَمَ الإناءَ والسيفَ ونحوَه يَثْلِمُهُ ثَلْما، وثلّمه فانْثَلَم، وتَثَلّم: كسر (لسان العرب ١٢/٧٨).

على الرجل أن يراقب سلوك امرأته، ولا يطلق لها العنان، بل يحجبها في البيت. والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة".

ثم ختم هذه السطور بمثل روسي وها هو:

"لا تركن إلى الفرس في الغيط، واركن للمرأة في البيت".

وقال تولستوي عن الحب والزواج:

"إن دوام الحب بين الزوجين من رابع المستحيلات. إنه قد يكون حب، ولكن إلى وقت قصير جدًا، ثم لا يدوم إلا في الروايات فقط. وأما بين الناس، فعديم الاستقرار في قلبين معًا.

وكل رجل- متزوجًا كان، أو غير متزوج- إذا اجتازت به غادة فتانة، فأكثر ما يكون منه أن يوجه إليها التفاتة. وقد يبذل بعضهم كل مرتخص وغال بعد ذلك في سبيل الوصول إليها.

والمرأة من هذا القبيل كالرجل؛ فإنها تجتهد للاتصال بأكثر من واحد دائمًا. وما دام يمكنها هذا الاتصال، فهي نائلة أربها لا محالة.

إذا قلنا: إنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طول الحياة، فما مثلنا في ذلك إلا مثل من يوقد شمعة، وهو يعتقد أنها تدوم مضيئة طوال الدهر.

إن الزواج أصبح في عصرنا هذا بينًا محض خداع، ولكنه لا يزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سرًا من أسرار الدين، كالمسلمين، والصينيين، والهنود. أما نحن فلا نرى فيه غير تلك المقارنة الحيوانية.

الزوجان يخدعان الناس بأنهما يعيشان معًا في ارتباط عائلي حقيقي بالزواج،

يظهر كذلك أمرهما في الخارج لكل من رآهما، وإنهما سيبقيان في تمام الوفاق ما دامت الحياة. والحقيقة أنهما يعيشان على قاعدة تعدد الزوجات، ولكن من الجانبين. وبهذا التكافؤ قد يتفقان زمنًا.

وعلى الأكثر: إن كليهما في الشهر الثاني يهدد صاحبه بالطلاق، وقبلما يتمكنان من وسائله. وعن ذلك تصدر الأفكار الخبيثة الجهنمية التي ينجم عنها إطلاق الرصاص انتحارًا، أو قتلا، أو دس السم، وما أشبه".

وقال تولستوي في الفساد المنتشر بين الناس:

"وتفسد أخلاق الشاب في المدرسة؛ لأن جميع رفاقه- فسدة الأخلاق- يصحبونه معهم إلى أندية الرجس؛ فيفقد طهارته وعفته من حيث لا يدري أن في فعله هذا ما يخالف الآداب والفضيلة.

تفسد أخلاق الشاب من أول نشأته؛ لأنه لا يسمع من مرشديه أن الفسوق محرم، بل بالعكس يسمع أن صحة الجسم تستلزم "بعض الشيء". وجميع المحيطين به يقولون: إن "الوقوع" شيء طبيعي قانوني مفيد للصحة، وفاكهة الشباب الحلوة. لهذا كله لا يدرك الشاب أنه سائر في طريق الضلال، بل يقطع الطريق الطبيعية التي يسير فيها كل صحبه وأفراد الوسط الذي يعيش فيه، فيبدأ بالفحشاء كما يبتدئ بشرب المسكر والتدخين.

وأنا أعرف أمهات كثيرات يعتنين بأمر أولادهن في هذا الطريق رعاية لصحتهم.

بقي على الشاب أمر واحد، يخشى عاقبته من ارتكاب الموبقات، وهو العدوى من المرض المشهور. غير أن الحكومة التي تهتم بصحة رعاياها لم تدع مجالا

للخوف؛ فإنها بهمة فائقة تعتني اعتناءً تامًا بالمواخر. والأطباء- كهنة أصنام العلم- يراقبون المومسات؛ لقاء أجور يتقاضونها. وهم من جهة أخرى يفتون للشباب بضرورة "الاجتماع"، ولو مرة في الشهر؛ مراعاة لقانون الصحة.

فهم على ذلك، يرتبون سير الفحش ترتيبًا مدققًا، ويضبطون دوائره ضبطًا "محكمًا".

ليت الحكومة التي تهتم اهتمامًا عظيمًا بإزالة الزهري[٩٣] معالجةً، تستعمل جزءًا من مئة من ذلك الاهتمام في إزالة المومسات؛ فيصبح الزهري إذ ذاك في خبر كان"!

وقال تولستوي في حفلات الرقص الساهرة:

"يجري بيننا، وتحت نظرنا من الأمور السافلة ما لا طاقة لذي ناموس[٩٤] وشرف على احتماله: يزورنا رجل لا نجهل من سيرته شيئًا، فنستقبله أحسن استقبال. وعندما يدخل قاعة الضيوف، يجالس أختي، أو ابنتي، أو قرينتي، حيث يتركني وشأني، أو أتركه وشأنه. وربما أعرف من سلوكه وتصرفاته ما أعرف، فكان يلزم-

---

[٩٣] الزهري (sephelis): هو مرض من الأمراض التي يسببها الاتصال الجنسي بين الزناة، ويمر هذا المرض بثلاثة أطوار، خلال سنوات طويلة، حيث يسبب انحلال النخاع الشوكي، أو الشلل العام، وفقدان انتظام الحركة. وفي الغالب يصحب بأزمات معدية شديدة، وأوجاع ناخرة في الفخذين، كما يسبب خلخلة في صابونة الركبة، وجمودًا في حدقة العين. ويضطر المريض إلى ملازمة الفراش ليذوق وبال ما جنت يداه. وفي عصرنا ظهر ما هو أشد، وهو مرض نقص المناعة المعروف بالسيدا، أو الإيدز، الذي أعي الأطباء أن يجدوا له علاجًا ناجعًا. ويموت المريض به لا محالة.

[٩٤] ناموس: الناموس هو الشرع الذي شرعه الله (التعريفات: الجرجاني، ص٣٠٧). وقد يكون معناه هنا: العقل والحذق (انظر: القاموس المحيط، مج١، ص٧٤٦).

والحالة هذه- أن أتقدم إليه عند قدومه، وأتنحى به جانبًا، وأقول له هامسًا: إني يا صاح أعرف أحوالك، وأين تصرف لياليك، ومع مَن. فليس لك عندنا مكان؛ لأن فتياتنا طاهرات!

كذا كان ينبغي أن يفعل كل واحد منا، ولكنا نجري على العكس مما تقدم. فإذا اجتمعنا مع هذا الرجل في ليلة راقصة، كان له أن يرقص مع أختي، أو ابنتي، ويعانقها، ويخاصرها!

نراه بأعيننا، ونشاهد حركاتهما معًا، غدوًا أو رواحًا، وميلا واهتزازًا، ولا تشمئز منه نفوسنا، بل نتساءل: إذا كان حرًا؛ لنسعى في تزويجه بإحدى بناتنا، ولو كان أثر المرض باديًا عليه".

ثم قال تولستوي عن الأزياء، وحالة الطبقة العالية من نساء أوروبا:

"إننا لو أمعنا النظر في معيشة نساء الطبقات العليا، كما هي من قلة الحياء والخلاعة، لا نجد ثم فرقًا بين البيت الذي يضمهن، ونادى مومسات مختلط.

ولكن الناس لا يوافقوني على كلامي هذا، فأنا إذًا أقيم لهم برهانًا حسيًا:

هم يقولون إن نساء هيئتنا الاجتماعية يعشن بحالة تخالف معيشة المومسات، وأنا أخالفهم في ذلك وأقول: إذا كانت النساء تختلف في حالة المعيشة الداخلية، فمن الحقائق المقررة أن ما يكون خارجًا منهن أثر المعيشة في الداخل. وهذه يلزم أن تخالف معيشة المومسات من كل وجه، ولكن أنا لا أرى فرقًا كبيرًا بين معيشة الفريقين في الخارج. قابلوا أيها الناس بين المومسات، وبين نساء الطبقة العليا،

تجدوهن متفقات في الهيئات، والأزياء[٩٥]، والروائح العطرية، وتعرية[٩٦] السواعد والمناكب والصدور، ووضع الوسادة خلف الظهر[٩٧] أينما جلسن، وأينما ركبن، وفي اقتناء أنفس الجواهر والحجارة الكريمة اللماعة، وفي المراقص والغناء!!

وكما أن المومسات يستعملن كل الوسائط الفعالة لغواية الشبان وجذبهم؛ واستمالة النفوس حتى يصبو لهن كل راءٍ، كذلك نساء الطبقات العالية يفعلن في وسطهن.

---

[٩٥] أقول: ماذا لو رأى تولستوي تلك الظاهرة الغريبة التي تفشت في العالم الآن، ولم يخل منها بعض مجتمعات المسلمين، وهي ارتداء كثير من النساء للبنطال في الشوارع والمتاجر وأماكن الترفيه والعمل، حتى صارت صرعة تنتشر انتشارًا سريعًا من مكان لآخر، وكأنها صرخة شيطان هوى بها في آذان أهل الأرض. فأتبعه هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً﴾[النساء:١١٧-١١٩]. ولا يجادل أحد في أن ارتداء البنطال حتى وقت قريب كان عنوانًا على أن المرأة أجنبية أو متفرنجة، وكان هذا المشهد نادرًا ما يُرى في بلادنا نحن المسلمين، إلى أن صار كالنار تنتشر في الهشيم، ولا ينجو منها إلا قليل من النساء، اللواتي يحفظن عفتهن، ويخفن الله تعالى في أنفسهن، ويجدن في أزواجهن وآبائهن ناصحين ومربين.

[٩٦] في الأصل إعراء: وهو أن تجعل ثمرة نخلة لِمُحْتاج، أو لغير محتاج عامَها ذلك، فهي عرية، والجمع عَرايا. (لسان العرب ٤٤/١٥). وليس هذا مراد الكاتب، فاستبدلنا بها لفظة: "تعرية"، من التعري، والعُري.

[٩٧] وضع الوسادة خلف الظهر: الظاهر أنهن يضعنها لإبراز صدورهن.

٨. النبي محمد

لأحد كتاب الروس

جاء في إحدى المجلات الروسية[98] تحت هذا العنوان ما يأتي بالحرف الواحد:

"في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين، حيث كان الناس يدينون بالديانتين: المسيحية، واليهودية- ظهرت ديانة عظيمة، أساسها الاعتراف بوحدة الله. وهذه الديانة تعرف بالمحمدية[99]، أو كما يسميها أتباعها "الإسلام"[100].

---

[98] هذه أقوال كاتب روسي مسيحي منصف نشرها بين قومه لإطلاعهم على جوهر الدين الإسلامي وما فيه من الحقائق الباهرة وهي حرية بالاعتبار لصدورها من كاتب فاضل يقول الحق ولا غرابة فرجال الفضل المنصفون وجدوا في الدنيا لتقرير الحقائق ودفع التهم وإرشاد الناس إلى الحقيقة الناصعة التي لبثوا أعوامًا طوالا وهم في ريبة منها لما قرأوه عنها من الاختلافات التي بثها في نفوسهم بعض الكتاب الذين يجرون وراء تيار الهواء ويخالفون ضمائرهم لإرضاء فريق من الناس وهي خلة ذميمة في الكتاب الذين هم مصابيح الأزمنة، والواجب يقضي عليهم بتبديد غياهب الجهل وإنارة الأفكار بنبراس الحقيقة فإذا سار العلماء والكتاب على خطة هذا الكاتب الروسي أفادوا العالم فوائد لا يقدرها إلا كل ذي شعور حي يتألم لتنابذ الناس وتباغضهم. (المعرب).

[99] المحمدية: صفة أطلقها الغربيون على أتباع الإسلام؛ ليوحوا بأن هذا الدين الإلهي من صنع محمد ﷺ؛ وليس وحيا من عند الله. وبئس ما قالوا!

[100] الإسلام يعني: إسلام الوجه والقلب لله تعالى، والتسليم لشرعه، والرضا بقضائه وقدره. وهو دين الله تعالى الذي أوحاه إلى جميع أنبيائه ورسله، ولا يقبل من أحد دينًا سواه، كما قل أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام: {قُلْ إِنَّ

وقد انتشرت هذه الديانة انتشارًا سريعًا بين قبائل متعددة وأمم كثيرة، حتى بلغ عدد منتحليها في هذا العصر نحو مائتي مليون نفس[١٠١].

مضى على ظهور الديانة الإسلامية (١٣٣٠) عامًا[١٠٢]. أي بعد ظهور الديانة المسيحية بنحو ٦٠٠ سنة. ومؤسس هذا الدين هو العربي محمد[١٠٣].

كان العرب- (أقرباء اليهود باللغة والجنس)[١٠٤]- قبل ظهور الرسول وثنيين، يعبدون آلهة متعددة، وأرواحًا صالحة وشريرة. وكانت هذه الآلهة تقسم إلى قسمين: عائلية، ووطنية. فكان كثير من العائلات تصنع لها صنمًا خاصًا تعبده، وكان في كل قبيلة صنم عام، تسجد له برمتها. ولكن العرب عمومًا كانوا يعتقدون بوجود إله، يعتبرونه أبًا لهذه الأرباب، ويسمونه "الله العلي العظيم"[١٠٥].

صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام:١٦٢-١٦٣). وقال الله تعالى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة:١٣٣).

[١٠١] يناهز عدد المسلمين في العالم الآن مليار ونصف مليار مسلم.

[١٠٢] مضى على ظهور الإسلام (١٣٩٥) سنة. ومن هنا نعلم أنه مضى على هذا الكلام خمسة وستون عاما.

[١٠٣] محمد نبي الله ورسوله إلى العالمين ﷺ.

[١٠٤] العرب واليهود ينتمون معًا إلى الجنس السامي.

[١٠٥] هذا التصور ليس صحيحًا في جانب منه، بل غيرهم من الوثنيين هم الذين اعتقدوا في إله أكبر، هو أب لجميع الآلة الصغيرة. وأما العرب في الجاهلية، فاعتقدوا أن الله خالق السموات والأرض، الرازق المحيي المميت. ولكنهم اتخذوا هذه الآلهة وسطاء بينهم وبين الله سبحانه فعبدوها. وهذا أصل شركهم، كما بين الله سبحانه عنهم: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (العنكبوت:٦١). وقال عز من قائل: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (الزمر:٣).

وكانت اعتقادات العرب الدينية مملوءة بالخرافات، وديانتهم مبنية على القسوة والانتقام والتعادي.

ولقد انقسمت بلاد العرب إلى ثلاث مقاطعات، وهي: اليمن ذات التربة الخصبة، ويعمل أهلها بالزراعة وتربية المواشي. ثم نجد، ويسكنها رُحَّل، يتوفرون على تربية الماشية والغزو والنهب. ثم الحجاز. وأهلها أرباب تجارة مع مصر وسوريا والجهات الأخرى. وعاصمة هذه الجهة مكة. وهي المدينة المقدسة عند جميع القبائل العربية. ولكل قبيلة فيها أصنام خاصة بها، وفيها الكعبة، المعبد العظيم الذي يُحفظ فيه الحجر الأسود، هذا الحجر الذي تقول تقاليد العرب بشأنه: إن الله سبحانه وتعالى أنزله على إبراهيم جد العرب[١٠٦]؛ لأنهم يعتقدون أنهم من نسل إسماعيل ابن هاجر[١٠٧].

وكان العرب يزورون مكة في كل عام. وحتى يأمنوا على نفوسهم من القتل والسلب في خلال هذه الزيارة، عيَّنوا أربعة أشهر في العام، حرَّموا في أثنائها سفك الدماء والغزو والسرقة[١٠٨].

---

[١٠٦] الحجر الأسود من الجنة كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام (٨٧٧)، عن النبي ﷺ، قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن؛ فسودته خطايا بني آدم". وعن النسائي، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "الحجر الأسود من الجنة". أخرجه النسائي، كتاب مناسك الحج، ذكر الحجر الأسود (٢٩٣٥). وأحمد في المسند، من حديث عبد الله بن عباس (٢٧٩٦). وذكره الألباني في الصحيحة (٢٦١٨).

[١٠٧] كان لإبراهيم ولدان: إسحق، وإسماعيل. وأما إسحق فمنه ولد يعقوب أب بني إسرائيل. وأما إسماعيل فمنه أتى العرب المستعربة. وهم عرب الحجاز. والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل، ومنهم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وجرهم، والعماليق، وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام و في زمانه أيضًا. (سيرة ابن كثير ٣/١).

[١٠٨] الأشهر الحرم: كانت عادة العرب تعظيم الأشهر الحرام، وامتناعهم من القتل فيها. وهي أربعة أشهر كما نص عليه القرآن العزيز بقوله: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات

ولما وحَّد النبي محمد قبائلَ العرب، وأنار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد- هَذَّب أخلاقهم، ولين طباعهم وقلوبهم، وأصلح عاداتهم البربرية الهمجية، وجعلهم أمة مستعدة للرقي والتقدم.

كان العرب- قبل ظهور النبي محمد- يقدمون لآلهتهم الذبائح البشرية، من أسرى الحرب[109]، ومن أولادهم- فيئدون بناتهم[110]- ويقتلون عدوهم. وعلى الجملة، فقد كانت أخلاقهم مبنية على القساوة والانتقام وسفك الدماء.

وقد قضى النبي محمد على ذلك جميعه، ونادى بعبادة الخالق ﷻ، وساوى جميع العرب أمام الله، وحرَّم الانتقام، ومنع سفك الدماء.

وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد، تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى أن في نفسه قوة فوق قوة البشر[111].

ولد النبي محمد عام (٥٧١م)، من أبوين فقيرين. وقد توفي والده قبل ولادته بشهرين، وتوفيت والدته في العام السادس من عمره، فكفله أولا جده، ثم عمه الذي كان يصحبه معه في سفراته التجارية.

وكان النبي محمد في حداثته يخدم أعمامه، فيرعى ماشيتهم، ويقود جمالهم.

ولما بلغ العام العشرين دخل في خدمة قريبته الأرملة خديجة، من ذوات الثروة

وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (التوبة:٣٦). وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

[109] لم يعرف العرب تقديم القرابين البشرية للأصنام- فيم نعلم. وربما كان هذا من شائعات الغربيين التي أطلقوها هم أنفسهم وصدقوها.

[110] عرف عن العرب دفنهم لبناتهم أحياء خوف العار، لا قربانا للأصنام.

[111] يقول القرآن الكريم عن محمد ﷺ: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} (الكهف:١١٠).

الواسعة، بصفة وكيل لها. وبعد مرور سنة قضاها في خدمتها تزوجها، مع أنها أكبر منه بعشرين عامًا، وقيل بخمسة عشر.

كان محمد ذا فكر نيّر، وبصيرة وقّادة. واشتهر بدماثة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع وحسن المعاملة للناس. واشتهر بميله للأبحاث الدينية، حتى أنه كان يناقش اليهود والنصارى. ومن هذه المناقشات عرف أشياء عن موسى والمسيح، وعرف بعض الشيء من تعاليم التوراة والإنجيل، وعرف أنه يوجد إله عظيم لم تصنعه الأيدي البشرية[١١٢،١١٣].

مضت على محمد أربعون سنة، قضاها بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه محبة شديدة، وأهل مدينته يحترمونه احترامًا عظيمًا؛ لما هو عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس والنزاهة.

وكانت ثروة زوجته تكفيه مؤونة الكدح للمعاش، فعاش رخاء وهناءة. ولكن من جهة أخرى كانت في نفسه عواطف دينية قوية، تدفعه إلى القيام بعمل عظيم، ألا وهو إخراج أمته ومواطنيه من دياجير وظلمات الخرافات الدينية.

---

[١١٢] إن الذي نعرفه من كتب الإسلام والسير النبوية لا يثبت هذه الرواية. (المعرب).

[١١٣] لم يثبت أن النبي ﷺ ناقش اليهود أو النصارى قبل البعثة في دينهم، بل كان هو يعبد الله على دين إبراهيم الحنيف، ويجتنب ما عليه قومه من الشرك والوثنية. والقول بأنه ناقش اليهود والنصاري؛ فعرف أشياء عن موسى وعيسى، وعرف أشياء عن التوراة والإنجيل، وعرف أنه يوجد إله واحد.. إلخ. كل ذلك من الافتراءات التي روجها أعداء الإسلام، ويقصدون بها زعمهم أن الإسلام من وضع محمد، وأنه مما تعلمه من أهل الكتاب، لا من الله. ويريدون أن يبرروا بذلك أيضًا ما ورد من معلومات مفصلة عن دين أهل الكتاب وأنبيائهم. وقد ردَّ الله سبحانه على كل ما قالوه في كتابه المجيد، فقال: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} (العنكبوت:٤٨-٤٩). وقل عز شأنه: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} (النحل:١٠٣).

وصل الاعتقاد الديني بمحمد إلى الاعتراف بأن موسى وعيسى من أنبياء الله، ولكنه لم تَرُقْهُ بعض عقائد الديانتين المسيحية واليهودية.

ولطالما انقطع محمد في حداثته إلى الجبال المجاورة لمكة، حيث يقيم شهرًا متعبدًا. وكان شعوره الديني يزداد عامًا فعامًا، حتى أيقن في النهاية أن أرباب أمته لا شعور لها ولا قوة، وأن الإله الحقيقي واحد، وهو الله منشئ الكائنات، ومدبرها بقوته غير المحدودة.

ففي سنة من سنوات اعتزاله، تواترت عليه ذات يوم الأفكار الدينية. وبعد ذلك اضطربت لها نفسه اضطرابًا شديدًا؛ فدخل مغارة ونام فيها. وفي خلال نومه رأى رؤيا، دعاه في خلالها هاتف ليكون نبيًا، يدعو أمته لمعرفة الإله الواحد. ولما استيقظ من نومه عاد إلى منزله مضطربًا. وبعد عدة أسابيع رأى رؤيا أخرى، دعاه فيها صوت ذلك الهاتف ليكون نبيًا لأمته، فعزم بعد هذه الرؤيا- بدون تردد- على دعوة أمته إلى معرفة الحق. وصمم العزم على تطهير البلاد من الأصنام[١١٤].

---

[١١٤] تبين السيدة عائشة أم المؤمنين كيف كان بدء الوحي، قالت: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ! قال: "ما أنا بقارئ". قال: "فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم} [العلق:١-٣]". فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها فقال: "زملوني. زملوني". فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي". فقالت خديجة: كلا والله! ما يخزيك الله أبدا! إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب

ومن أراد أن يحكم على الدين الإسلامي ومبادئه وروح تعاليمه، فليطالع الآيات الآتية التي اقتطفناها من القرآن وهي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(المائدة:٦٩).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦- ٢٧).

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(البقرة:٢٨٦).

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٦٠).

﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٥).

من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرًا قد عمي. فقالت له خديجة: يا بن عمًّ! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله به على موسى" (أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ [٣]. ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ [١٦٠]).

وليس في ذلك، ولا في غيره أنه اعتزل لإحساسه بالاضطراب النفسي، ولا أن ما رآه كان مجرد رؤيا منام، يسمع عنده هاتفًا داخليًا، وإنما في الحديث أن أمين الوحي جبريل عليه السلام، هو الذي جاء إلى النبي ﷺ في اليقظة، وهو يتعبد في الغار، وضمه إلى صدره، وأقرأه القرآن، كما نزل على موسى وعيسى وسائر المرسلين. وكلام الكاتب كلام من لا يؤمن بنبوة محمد، ولا أن ما أتى به هو وحي من عند الله.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة:١٢٩).

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(الأنبياء:٢٢).

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:١٥١).

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ﴾(الأنعام:١٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٣٠).

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢-٨٣).

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾(الإسراء:٢٩).

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾(الإسراء:٢٦).

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(البقرة:٢٧).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ. فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:١٩-٢٠).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(النساء:١).

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾(محمد:٣٦).

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٦).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(البقرة:٢١٣).

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٢٧٤).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا

غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(النور:٣٥).

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(النور:٣٠-٣١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٦).

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢١٥).

﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٢-٤٤).

وقد صدَّقت عائلة النبي محمد برسالته[١١٥]. وكذلك عليٌّ، وزيد، وانضم أبو بكر

---

[١١٥] ليس كل عائلة محمد أمنت به، فلم يؤمن به عمه أبو طالب، ولا عمه أبو لهب. وتأخر إسلام عمه العباس، وعمه حمزة.

الذي غدا من أكبر أنصاره. وأكد أكثر مؤرخي العرب أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، وأن خديجة أول من أسلمت من النساء.

وقد أراد النبي محمد في بدء رسالته أن يسير على عادات قبيلته[116]، فدعا كبار عشيرته، وأعلنهم برسالته. فلما سمعوا منه مقالته استكبروا منه ذلك، وأخذ الغضب منهم مأخذًا عظيمًا؛ لأنهم انتظروا أن يسمعوا منه كلامًا عن تجارة أو غزوة. وقال له أبو لهب، أحد أعمامه، بلهجة الغضب: ألهذا دعوتنا؟ فاختنق! واصمتْ! ثم تفرقوا صاخبين هازئين[117].

ثم أخذ النبي محمد يجاهر برسالته، فعاب دين قبيلته، وسفَّه أحلامها، وسَبَّ آلهتها. فأساء بذلك إلى أشراف القبيلة، ورأوا في رسالته خطرًا على البلاد وأهلها، ولكن لم يجسر أحد منهم أن يقاومه؛ خيفة من وقوع النزاع والشقاق[118].

---

[116] لا أدري ماذا يعني الكاتب بأن النبي محمد أراد في بدء رسالته أن يسير على عادات قبيلته. هل يزعم أنه أراد أن يداهنهم؟ أو يقصد أنه استخدم وسائلهم في الإعلام؟ فإن تكن الأولى فلا، وإن تكن الثانية فلا بأس. وذلك لأن الله قال: {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} (الإسراء:٧٣-٧٥).

[117] عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: لما نزلت: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (الشعراء:٢١٤). صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر! يا بني عدي! لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي، تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي". قالوا: نعم! ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: "تبًا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} (المسد:١-٢). (أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء (٤٤٩٢)).

[118] قاوم القرشيون دعوة محمد بطرق كثيرة، بالاستهزاء به، والسخرية منه، وتسليط صبيانهم وسفهائهم للنيل منه، ورموه بأشنع الأوصاف، فقالوا عنه: إنه ساحر، أو كاهن، أو كذاب. واستعملوا المقاطعة الاقتصادية له ولمن

وفي سِنِي رسالته الأولى، لم يصدق بنبوته إلا ثلاثة وأربعون شخصًا، أكثرهم من الفقراء والعبيد الذين سامهم مواليهم صنوف الاضطهاد والهوان، فأخذ إذ ذاك أبو بكر أعظم أنصار النبي محمد يفتدي أولئك العبيد بأمواله، واشترى مرارًا بماله المعذبين لإنقاذهم من الآلام.

وفي خلال ذلك طلب القريشيون من أبي طالب- عم النبي محمد، أن يرجع ابن أخيه عن كلامه وأعماله، فنصح له أبو طالب، ولكن النبي أجاب بقوله: "لو أعطوني الشمس بيميني، والقمر بشمالي لكي أترك هذا الأمر قبل أن ينصره الله أو أهلك أنا في سبيله- فلن أتركه"[119].

ولما قال هذا أراد الخروج، فأمسك به أبو طالب، وقال له: جاهرْ بأمر رسالتك، وعلِّم ما تريد، فلست بمسلمك لهم يا ابن أخي، ولن أتركك أبدًا.

وفي عام (٦١٧م)، توفيت خديجة، وبعد وفاتها بعدة أسابيع توفي أبو طالب أيضًا. وبذلك انقطعت علاقات النبي محمد القلبية مع مكة؛ فغادرها إلى المدينة.

ولم يمض على إقامته فيها زمن طويل حتى آمن برسالته كثيرون، وألفوا جماعة أطلق عليها جماعة المؤمنين، اشتهروا بالتقوى والصلاح. وحسب تعاليم الإسلام

آمن به، وعذبوا أصحابه، وفي النهاية حاولوا حبسه، أو قتله، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (الأنفال:٣٠).

[119] أورده الطبري في التاريخ (٥٤٥/١). وابن كثير في البداية والنهاية (٤٨/٣)، عن محمد بن إسحق. وضعفه الألباني بهذا اللفظ في الضعيفة (٩٠٩). وإنما صح قول النبي ﷺ: "ما ترون هذا الشمس؟" قالوا: نعم! قال: "ما أنا بأقدر أن ادع ذلك منكم: أن تشعلوا منها شعلة" قال أبو طالب: ما كذبنا ابن أخي قط فارجعوا" (أخرجه الطبراني في الكبير، من حديث عقيل بن أبي طالب (٥١١). وأبو يعلى في مسنده، من حديث عبد الله بن جعفر الهاشمي (٦٨٠٤). والبزار في مسنده، من حديث عقيل بن أبي طالب (٢١٧٠). وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٢).

كانوا جميعهم متساوين في كل شيء، ولم يكن بينهم أثر للسيادة والانقسام إلى طبقات متفاوتة في الحسب والنسب، كما كان الحال عليه عند القبائل العربية.

وقد ضربت السكينة بين جماعة المؤمنين أطنابها[١٢٠]، ورفعت المساواة قبابها؛ فتناسوا ما كان بينهم من الحزازات[١٢١] والضغائن؛ وأصبحوا يعيشون كنفس واحدة. وكان الواجب يقضي عليهم أن يدافعوا عن بعضهم بعضًا ويردوا هجمات غير المؤمنين.

وقد جرت عدة وقائع حربية بين أنصار النبي وأهالي مكة، انتهت بانتصار الأنصار[١٢٢]، الذين دخلوا مكة ظافرين.

وقد طاف النبي- وهو على ناقته- حول الكعبة سبع مرات، ومَسَّ الحجر المقدس بعصاه، ثم أمر بتحطيم جميع الأصنام التي كانت موجودة في منازلهم. وقد لبَّى الجميع هذا النداء؛ لوثوقهم بضعف آلهتهم، وأنها لا قوة لها.

وفي آخر رحلة رحلها النبي إلى مكة، جمع حوله الحُجاج، وذكَّرهم بجميع وصايا الإسلام، ونصح لهم بأن يعيشوا مع بعضهم بعضًا عيشة سلام وأمان، وأن يكونوا إخوانًا، وأن يتناسوا الأحقاد القديمة، ويكفوا عن سفك الدماء، والأخذ بالثأر. وأوصاهم خيرًا بزوجاتهم وعبيدهم. وفي الختام قال: إنني قد قمت بما عهد إليّ[١٢٣].

---

[١٢٠] أطنابها: الطُّنُبُ حبل طويل يُشَدُّ به البيتُ والسُّرادقُ بين الأرض والطرائق. وقيل: هو الوَتِدُ والجمع أطنابٌ (لسان العرب ٥٦٠/١).

[١٢١] الحزازات: جمع الحزازة، وهي وَجَعٌ في القَلْب، من غَيْظٍ ونحوه (كتاب العين ١٧/٣).

[١٢٢] انتصار الأنصار، والمهاجرين. وليس الأنصار وحدهم.

[١٢٣] هذه الرحلة هي حجة الوداع. وكانت في آخر حياة النبي ﷺ فلم يحج قبلها ولا بعدها، وفيها خطب خطبة الوداع. فأجمل عدًا كبيرًا من الوصايا لأمته. فقال رسول الله ﷺ: "ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة؟". قالوا: ألا

وبعد عدة شهور مضت على مغادرته مكة، انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء. وكانت وفاته في اليوم الثامن من شهر يونيه، سنة (٦٣٨م)، في العام الثالث والستين من سني حياته. وقبل وفاته أعتق جميع عبيده.

إن محمدًا نبي الإسلام، الذي يدين به الآن أكثر من مائتي مليون نفس[١٢٤]، قد قام

شهرنا هذا! قال: "ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة؟". قالوا: ألا بلدنا هذا! قال: "ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة؟". قالوا: ألا يومنا هذا! قال: "فإن الله- تبارك وتعالى- قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. ألا هل بلغت؟". (ثلاثا). كلُّ ذلك يجيبونه: ألا نعم! قال: "ويحكم! أو ويلكم! لا ترجعن بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض" (أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق (٦٤٠٣)). وقال: "أي يوم أحرم؟ أي شهر أحرم؟ أي بلد أحرم؟". فقال الناس: يوم الحج الأكبر. يا رسول الله! قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا ولد على والده. ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحل من نفسه. ألا وإن كل ربًا في الجاهلية موضوع. لكم رءوس أموالكم، لا تَظلمون، ولا تُظلمون، غير ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله. ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع. وأول دم وضع من دماء الجاهلية، دم الحارث بن عبد المطلب- كان مسترضعا في بني ليث، فقتلته هذيل- ألا واستوصوا بالنساء خيرا؛ فإنما هن عوان عندكم. ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك. إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة. فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا. فأما حقكم على نسائكم، فلا يُوطِئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم من تكرهون. ألا وإن حقهنَّ عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن" (أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة التوبة (٣٠٨٧). وحسنه الألباني.

[١٢٤] زاد هذا العدد أضعافًا مضاعفة، وهو في طريق الزيادة، وفي عام ٢٠٥٠م سيكون نصف سكان العالم من المسلمين. وهنا يثور السؤال: أين كل أموال الغرب التي أنفقت لتنصير المسلمين؟ بل أين مخطط الكنيسة لتحويل أفريقية إلى قارة نصرانية؟ والجواب قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (الأنفال:٣٦-٣٧).

بعمل عظيم جدًا؛ فإنه هدى الوثنيين الذين قضوا حياتهم بالحروب الأهلية، وسفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، إلى معرفة الإله الواحد. وأنار أبصارهم بنور الإيمان، وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله سبحانه وتعالى.

والحق الذي لا مراء فيه: أن النبي محمدًا قام بعمل عظيم، وانقلاب كبير في العالم. ومن أراد أن يتحقق ما هو عليه الدين الإسلامي، عليه أن يطالع القرآن الكريم بإمعان؛ وإذ ذاك يصدر حكمًا مبنيًا على الحقائق الباهرة التي يتضمنها، وقد جاءت فيه آيات كريمة تدل على روح الدين الإسلامي السامية، فمنها الآية الكريمة القائلة:

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عمران:١٠٣).

٩. أقوال بعض كتاب الروس في الإسلام والمسلمين

إجبار المسلمين على التنصير:

في روسيا جمعيات عديدة دينية، أنشئت لتبشير الأمم الإسلامية بالدين المسيحي، مثل قبائل: الكيرجيز[١٢٥]، والتتر[١٢٦]، والشركس[١٢٧]، وغيرها. ويبلغ عدد

---

[١٢٥] الكرجيز: يسكن الكرجيز في جمهورية قرقيزيا، أحد أفقر جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، التي استقلت عام ١٩٩١م، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، ويبلغ عدد سكانها ٤,٧٥ ملايين نسمة، ٤٨٪ منهم قيرقيز مسلمون، و٥٢٪ روس وصينيون وأوزبك وغيرهم من القوميات الأخرى.

[١٢٦] التتر: أقام التتار المسلمون في شبه جزيرة القرم منذ زمن بعيد، وهم قوم اكتسحوا أجزاء واسعة من آسيا وأوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي. ولقد أسس باطوخان- حفيد زعيم المغول الكبير جنكيز خان- القبيلة الذهبية، التي أنشأت إمارة القبشاق، إحدى ممالك المغول الكبرى، والتي سيطرت على أجزاء واسعة من روسيا وسيبيريا، واتخذت من مدينة سراي في الفولغا عاصمة لها، وأجبرت دوقية موسكو على دفع الجزية. وامتدت سيطرة التتار إلى شبه جزيرة القرم، حيث استوطنتها العديد من العائلات التتارية التي اتخذت من الإسلام دينًا لها عام ١٣١٤هـ . وخضعت أجزاء من إمارة التتار للأتراك العثمانيين؛ بينما استولى القيصر الروسي إيفان الرابع على أجزاء أخرى، وتحولت الإمارة الكبرى إلى ثلاث إدارات هي: استراخان، وقازان، والقرم. مارست روسيا القيصرية شتى ألوان القهر والتعذيب ضد شعب التتار، وصادرت أراضيهم ومنحتها لمواطنيها، وصادرت مساجدهم ومدارسهم، واضطر نحو مليون وعشرين ألفا منهم للفرار إلى تركيا، وقامت روسيا بتهجير الباقي إلى داخل المناطق الخاضعة لها.

المسلمين في روسيا- أوروبا[128] نحو ستة عشر مليونًا ونصف. هذا عدا مسلمي

وفي ديسمبر ١٩١٧م، وإثر الثورة الشيوعية في موسكو، أعلن تتار القرم عن قيام جمهوريتهم المستقلة، برئاسة نعمان حيجي خان، إلا أن الشيوعيين سرعان ما أسقطوا الحكومة، وأعدموا رئيس الجمهورية وألقوا بجثته في البحر.

وفي عام ١٩٢٠م، أعلنت حكومة الاتحاد السوفييتي عن قيام جمهورية القرم ذات الاستقلال الذاتي، وعندما أراد ستالين إنشاء كيان يهودي في القرم عام ١٩٢٨م، ثار عليه التتار بقيادة أئمة المساجد والمثقفين فأعدم ٣٥٠٠ منهم، وجميع أعضاء الحكومة المحلية بمن فيهم رئيس الجمهورية ولي إبراهيم، وقام عام ١٩٢٩م بنفي أكثر من ٤٠ ألف تتري إلى منطقة سفر دلوفسك في سيبيريا. ولقد قام الجنود الروس بحرق ما وجدوه من مصاحف وكتب إسلامية، وأعدموا أئمة المساجد، وتم تحويل المساجد إلى دور سينما ومخازن. (إسلام أون لاين. نت ١٩٩٩-٢٠٠٦).

[127] الشركس: ويطلق عليهم أيضًا: "جركس". وأول من أطلق عليهم هذا الاسم هم اليونان. ويُطلق حاليًا على أعراق شمال القوقاز مثل: الأديغة، ويقطنون حالياً في شركيسيا. والقبردي على السواحل الشمالية الغربية للقوقاز، على البحر الأسود. والأبخاز في جمهورية أبخازيا حاليًا. والووبيخ (أو الأوبيخ)، الذين استشهد أغلبهم في الحرب ضد الروس، ولم يبق منهم الآن سوى ما يقارب المئة شخص. والشيشان (في جمهوريتي الشيشان، وأنغوشيا). والمناطق المجاورة. وبعض القبائل القليلة من الداغستان. وقد هاجر كثير منهم إلى بلاد الشام، وهناك حي بدمشق اسمه الشركسية. وحافظ الشركس على مجتمعهم ولغاتهم و تقاليدهم في تركيا وسوريا والأردن وإسرائيل. ولهم نسبة من مقاعد البرلمان الأردني. واتخذ منهم حكام الأردن حرسًا ملكيًا خاصًا بلباسهم القوقازي التقليدي. من القرى الشركسية في سوريا: القنيطرة، مرج السلطان، عين النسر. وفي الجولان: بئر عجم، بريقة، المدارية، ومجموعة من القرى المحتلة: المنصورة، عين زيوان، السلمنية، الجويزة، الفحام. ومن القرى الشركسية في فلسطين: الريحانية. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[128] تنقسم روسيا إلى قسمين: أحدهما في أوروبا، والآخر في أسيا. وتعتبر روسيا- وهي أكبر دول العالم من حيث المساحة- جسرًا يصل بين قارتي أوروبا وآسيا، وتمتد إلى حوالي (١٠٠٠٠ كم) من الغرب إلى الشرق، و تغطي أكثر من تسع مساحة العالم تقريبًا، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق جغرافية واسعة، هي: روسيا الأوروبية، وتقع إلى الغرب من جبل الأورال. ثم سيبريا، وهي تمتد شرقا من جبل الأورال. ثم أقصى شرق روسيا بما فيه أقصى الجنوب الشرقي وساحل المحيط. (كنانة أونلاين ٢٠٠٤ ©).

القوقاس[129]، وأواسط آسيا[130] الخاضعين للحكومة الروسية، وحسب آخر إحصاء عام، أجري في روسيا عام ١٩٠٧م، بلغ عدد المسلمين (١٠٦) في الألف من مجموع السكان[131].

---

[129] القوقاس: بلاد القفقاس هي البلاد الواقعة بين بحر الخزر في الشرق، والبحر الأسود في الغرب، بين نهر "ترك"، ونهر "قوبان" في الشمل، ونهري "كورا" و"ريفون" في الجنوب. وتشكل جبل القوقاز العمود الفقري، وتتجه من الجنوب الشرقي عند مدينة "باكو" أو شبه جزيرة "أبشيرون" إلى الشمل الغربي عند مضيق "كرش"، بين بحري الأسود، وآزوف. وتمتد هذه الجبل على طول ١٢٠٠كم. تبلغ مساحة المنطقة ما يقرب من نصف مليون كيلو متر مربع. الأجزاء الشمالية يدين معظم أهلها بالإسلام. أما الأجزاء الجنوبية فالأقسام الشرقية منها "أذربيجان"، والأقسام "آجاريا"، و"أبخازيا" مسلمة. أما الجهات الوسطى فأكثرية سكانها من النصارى "الكرج"، و"الأرمن". (صوت القوقاز ١٩٩٩-٢٠٠١).

[130] يقصد به جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية: طاجيكستان، وكازاخستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وقرغيزيستان. وهي جمهوريات وقعت تحت سيطرة القياصرة، ثم تحت سيطرة الشيوعيين، طوال قرنين من الزمان، وتعرضت لمحن وأهوال للدمج والإخضاع، القضاء على دينها الإسلامي، ولغتها القومية، وحدودها الجغرافية، وتاريخها وهويتها الحضارية.

[131] يبلغ عدد مسلمي روسيا حوالي ٢٠ مليون نسمة، وهي تضم الجمهوريات الإسلامية ذاتية الحكم التي لا تزال ملحقة بروسيا الاتحادية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وهذه الجمهوريات هي: "تتارستان"، ومساحتها ٦٨ ألف كم، وسكانها ٥ مليون نسمة، منهم ٥٦ ٪ مسلمون، أي حوالي ٣,٥ مليون نسمة. و"باشكيريا "، مساحتها ١٤٣ ألف كم، وسكانها ٤ مليون نسمة، منهم ٦٠٪ مسلمون، أي حوالي ٢,٥ مليون نسمة. و"الداغستان"، ومساحتها ٥٠ ألف كم، وسكانها ٤ مليون نسمة ٧٥٪ منهم مسلمون، أي أن سكانها المسلمون حوالي ٣ مليون نسمة، و"كياروبا"، ومساحتها ١٢,٥ ألف كم، وسكانها حوالي مليون نسمة، كلهم تقريبًا مسلمون. و" كراتشاي الشركسية"، ومساحتها ١٣,٥ ألف كم، وسكانها نصف مليون ٦٠ ٪ منه مسلمون، أي حوالي ٣٥٠ ألف مسلم، و"الإديجا"، ومساحتها ٤٠ ألف كم، وسكانها نصف مليون، ٨٠ ٪ منهم مسلمون، أي حوالي ٤٠ ألف مسلم. و"أوستيتيا الشمالية"، ومساحتها ١١,٥ ألف كم، وسكانها نصف مليون ٥٣٪ منهم مسلمون، أي ٣٠٠ ألف نسمة. و"أورنبرج" مساحتها ٨٥ ألف كم، وسكانها حوالي ٢,٥ مليون نسمة، ٥٣٪ منه مسلمون، أي أكثر من مليون نسمة. و"الجوناش"، وسكانها حوالي ٢ مليون نسمة، ومسلموها حوالي ٥٨ ٪، أي أكثر من مليون نسمة أيضًا. و"ماري"، وسكانها مليون نسمة ٥١٪ منهم مسلمون. وسيبيريا، ويبلغ عدد سكانها ١٠

وإذا راجعنا تاريخ المسلمين في روسيا، نجد أنه مرت عليهم أزمان قاسوا فيها صنوف الاضطهاد الديني، وأرغموا مرارًا على ترك دينهم، واضطر منهم ألوف أن يتنصروا بالاسم، ونقلوا أسماءهم من سجلات المسلمين إلى سجلات المسيحيين، ولكنهم تنصروا اسمًا، وهم لا يعرفون شيئًا من الديانة المسيحية، سوى تسميتهم بحنا، ومرقص، ومتّى. وفي الوقت نفسه لبثوا محافظين على عقائد الدين الإسلامي، والأخلاق الإسلامية. ولبثت نساؤهم محافظة على الحجاب!

وأذكر أنه منذ ثماني سنوات، تمكن بعض نوابغ المسلمين الروسيين وأعيانهم من استصدار أمر قيصري بإعطاء الحرية للمسلمين المتنصرين اسمًا: أن يعودوا للدين الإسلامي، فعاد منهم في أيام قليلة نحو أربعين ألفًا ونيف. وكانت أيام العودة للإسلام[١٣٢] هذه، أيام أعياد واحتفالات شائقة بين المسلمين، أقاموا فيها الزينات والولائم، ونحروا فيها الجُزُر[١٣٣]، وأكثروا من الصدقات على الفقراء والمحتاجين، وأقاموا الصلاة في جميع مساجد روسيا!

الحرية الدينية للمسلمين في روسيا:

وأهم مسألة يهتم بها النواب المسلمون في مجلس الدوما[١٣٤] هي توسيع الحرية

مليون نسمة، منهم ٢٥ ٪ مسلمون، أي أنهم ٢,٥ مليون نسمة. هذا بالإضافة إلى مليون مسلم يعيشون في موسكو وضواحيها، أي أن المسلمين في روسيا الاتحادية يمثلون الآن حوالي ٨ ٪ من سكانها. (كنانة أونلاين © ٢٠٠٤).

[١٣٢] في الأصل ألفاظ: "يرتدوا... فارتدوا... الارتداد". ولا يصح وصف عودة المسلم إلى دينه ردة، وإنما هي هداية وتوبة. لذا غيرنا هذه الألفاظ.

[١٣٣] الجزر: الجَزُورُ من الإبل، يقع على الذكر والأنثى. وهي تؤنث، والجمع الجُزُر (مختار الصحاح، ص١١٩).

[١٣٤] مجلس الدوما: هو مجلس الشعب الروسي.

للمسلمين، وتخويلهم حق الدفاع عن دينهم كلامًا وكتابة، والرد على جماعة المبشرين الذين يصدرون في كل عام مئات من الكتب، ويكتبون في مجلاتهم وجرائدهم المطاعن على الدين الإسلامي.

وكان المسلمون من قبل لا يصح لهم أن يردوا على تلك المطاعن، أو يدحضوها بالبراهين الساطعة، والأدلة الدامغة! بل كانوا مرغمين على سماع تلك المطاعن وهم صامتون، وقد أحرجت صدورهم، وتغلغل الحقد في قلوبهم. ولكن بعد الجهد والعناء، استطاع النواب المسلمون في مجلس الدوما- بمساعدة بعض النواب المسيحيين المنصفين، الذين طهرت قلوبهم من أدران التعصب الذميم، وأشربت أفئدتهم بحب الإنصاف، ونشر أولوية المساواة- من استصدار قرار من المجلس المذكور، صادق عليه جلالة القيصر نقولا الثاني، يتضمن الأمور التالية:

أولا: منح المسلمين حق الدفاع عن دينهم، والرد على أقوال المبشرين، وغيرهم من الذين يطعنون على الدين الإسلامي.

ثانيًا: منحهم الحق في إصدار جرائد ومجلات باللغة العربية، وكانوا من قبل لا يستطيعون إصدار جريدة أو مجلة إلا باللغتين الروسية، والتترية.

ثالثًا: منحهم الحق في إنشاء مدارس وكتاتيب بجوار المساجد، تعلم العلوم باللغتين التركية والعربية، وكانوا من قبل مجبورين على تدريس اللغة الروسية في مدارسهم.

رابعًا: تخويلهم الحق في تعيين الأئمة ورجال الدين من أشخاص يعرفون اللغتين التترية والعربية. وكانت الحكومة من قبل لا تسمح بتعيين المسلمين في الوظائف الدينية، إلا إذا كانوا يجيدون اللغة الروسية. وأمثال هؤلاء قليلون بين رجال الدين المسلمين. ولذلك كانت الحكومة تعين رجالا جهلاء في الدين،

وتهمل المستحقين؛ لعدم معرفتهم اللغة الروسية.

خامسًا: تخويلهم حق إدارة مدارسهم الدينية وأوقافها. وكانت من قبل هذه المدارس تديرها وزارة المعارف الروسية.

سادسًا: منع المسلمين من الإتجار ببيع المشروبات الروحية.

سابعًا: منع المسلمات من إنشاء مواخير للفساد وإدارتها.

ثامنًا: إعطاء المسلمين الحرية في قفل مخازنهم ومحلات متاجرهم يوم الجمعة، وعدم إرغامهم على قفلها يوم الأحد.

تاسعًا: تعيين أئمة من الجيش للقيام بخدمة الجنود المسلمين الدينية.

عاشرًا: تقديم مأكولات للجنود المسلمين ليس فيها طعام محرم في الدين الإسلامي.

حادي عشر: منح المسلمين الحرية في إنشاء الجمعيات الخيرية والنوادي الأدبية العلمية؛ لتعمل على ترقية المسلمين ماديًا وأدبيًا.

وبعد صدور الأمر القيصري بالتصديق على هذا القرار، انشرحت صدور المسلمين في روسيا، وتنسموا رائحة الحرية، التي ساعدتهم على السير في طريق الرقي الأدبي؛ فأنشئوا الجرائد العديدة بلغتهم العربية، وأصبح عندهم نحو مئتي جريدة ومجلة سياسية وأدبية وتاريخية ودينية، بعد أن كانت جرائدهم قليلة العدد جدًا، وألغى كثيرون القسم الروسي من جرائدهم. وأنشئوا أيضًا كثيرًا من الجمعيات الخيرية والأدبية، والمدارس العديدة، وأصبحوا يرفلون في رياض الحرية.

على أن كثيرين من كتابهم الفضلاء مازالوا يشكون من جمود المسلمين في روسيا، وتمسكهم بعقائد وتقاليد قديمة، وأنه يلزمهم وقت طويل لمجاراة الأمم

الغربية في مضمار الحياة، وإقبالهم على تعلم العلوم العالية.

وكثيرون من أولئك الكتاب الأفاضل أخذوا يؤلفون الكتب، ويكتبون المقالات في الجرائد والمجلات، يحثون بها أبناء دينهم على طرح نيْر[135] الجمود والاستكانة، ويرشدونهم إلى طريق الرقي.

وبوجه الإجمال، فإن مسلمي روسيا نهضوا في هذه الأيام نهضة شريفة، تبشر بحسن الطالع، وخير المآل. ولا ريب أنهم إن لبثوا على وفور الهمة، وتجدد النشاط، حَقَّقَ الله آمالهم.

على أن الحكومة الروسية من قديم الزمان كانت- وما زالت، ولن تزال- عاملة على معاملة المسلمين في بلادها بالحسنى، ومنحتهم كثيرًا من الحقوق التي لم تمنحها لغيرهم من الأمم المستظلة بالراية الروسية. ولا عجب في ذلك؛ فإن المسلمين في روسيا أظهروا- في حوادث كثيرة- أنهم من أشد الناس إخلاصًا لحكومتهم. وطالما دافعوا عنها بنفوسهم وأموالهم، واشتهرت الجنود الإسلامية في الجيش الروسي بالبسالة والإقدام، والدفاع عن حقوق الوطن. وقد عرف فيهم ذلك قياصرة روسيا، فاختاروا حرسهم الخاص منهم، ومنحوهم حقوقًا عديدة.

الشريعة الإسلامية في المحاكم الروسية:

والحكومة الروسية من قديم الزمان تحافظ على شعور المسلمين الديني، وتعاملهم في الحقوق المدنية بحسب الشريعة الإسلامية. وقد نشرت في العدد (٣٦٠٥) من جريدة المؤيد (الصادر يوم الاثنين ١٠ مارس سنة ١٩٠٢م) مقالة تحت

[135] نير: مأخوذة من نِيرُ الثَّوْر، وهو الخَشَبة المُعرَّضة الّتي على عُنُقه. وجَمْعُهُ أنيار. (كتاب العين ٢٧٧/٨. مختار الصحاح، ص٦٨٨). والمراد بها هنا القيد، أو الغل.

عنوان: "الشريعة الإسلامية في المحاكم الروسية". وجدتُ إظهارًا للحقيقة أن أنشرها هنا. وهي معربة عن جريدة "نوفويه فريميا"، أشهر الجرائد الروسية، ولسان حال وزارة الخارجية الروسية. وها هي بنصها[١٣٦] وفَصِّها:

"لا توجد مقاطعة في أنحاء المعمورة، تقضي فيها حقوق أهاليها بشأن الإرث، حسب نصوص شريعة الديانة المتدين بها أهل تلك المقاطعة، الخاضعون لمملكة متدينة بدين يخالف دينهم"[١٣٧].

ففي الجزائر، والهند، تستعمل محاكمها الشريعة الإسلامية في قضايا الوطنيين الأصليين فقط. وأما في سائر أنحاء فرنسا، وانجلترا، فإن المسلمين يرثون حسب نظام قانون نابليون والقوانين المدنية للبلاد التي يقيمون فيها.

غير أن روسيا شذت عن هذه الطريقة، ففيها وحدها يرث المسلمون حسب نصوص الشريعة الإسلامية، وقضاة محاكمها مأمورون بالسير على تلك الشريعة المرعية في محاكمنا من عهد بعيد، ومصرحة في البند (١٣٣٨) وما بعده من بنود المجلد العاشر من القانون المدني، ومشروحة شرحًا واضحًا، لا يدع أثرًا للريب في

---

[١٣٦] في الأصل: "بنصفها". وهو تصحيف.

[١٣٧] في هذه العبارة تعقيد والمقصود بها أن الدول لا تسمح للأقليات بالقضاء في الميراث إلا بحسب القانون العام، ولا تسمح لهم بقانون خاص تقضي به شريعتهم. وهذا المعمول به في أوربا وأمريكا وغيرها من البلاد غير الإسلامية، ويجبر المسلمون- باعتبارهم أقلية- باتباع قوانين هذه البلاد. غير أن المسلمين في بلادهم يسمحون للرعايا غير المسلمين باتباع شرائعهم الخاصة في الأحوال الشخصية والوصية والميراث، إلا أن يترافعوا إلينا، ويطلبون حكم الشريعة إسلامية. والأصل الشرعي في ذلك: "نتركهم وما يدينون، إلا أن يترافعوا إلينا". وقد أراد الكاتب الروسي أن يبين شذوذ روسيا عن هذه القاعدة، وسماحها للرعايا المسلمين باتباع الشريعة الإسلامية في قسمة المواريث. ونقول لهذا الكاتب: إن ذلك يرجع إلى أمرين رئيسين، أحدهما أن المسلمين كانوا يحكمون روسيا نفسها لوقت طويل، والآخر أن أحكام الميراث في الشريعة الإسلامية هي من العدالة بمكان؛ بحيث أننا لا يمكن أن نجد لها بديلا في أي تشريع وضعي.

النفوس.

ومع ذلك فإني أقول: لقد حان لحكومتنا أن توجه التفاتها إلى الصعوبات التي تنجم عن استعمال تلك الشريعة. هذا الاستعمال الذي لا يبرره بند القانون القائل باستعمالها، بالنظر لعدم مطابقتها للعقل[١٣٨].

ولقد ظهر من آخر إحصاء أن نسبة عدد المسلمين (١١) في المئة من جميع الأهالي الروس[١٣٩]، منهم ثلاثة في المئة من مسلمي أوروبا بروسية، والباقون في أملاك روسيا في آسيا. ثم إنه في بعض ولايات روسيا يكثر عدد المسلمين حتى إنه

---

١٣٨ فرية عدم مطابقة الشريعة الإسلامية للعقل، لم يزل يرددها أعداء هذا الدين، ولا ريب أن الإسلام مخالف لعقولهم السقيمة، ونفوسهم التي تعيش في ظلمات الجاهلية، كما قال شاعرنا:

وكم من فمٍ مرٍّ مريضٍ يجد مرًّا به الماءَ الزلالا

والحقيقة التي أثبتتها الدراسات الأكاديمية، هي أن الشريعة الإسلامية أرقى من كل قانون وضعه بشر، سواء أكان القانون الروماني، أو القانون الفرنسي.. أو غير ذلك. وجميع أحكام الشريعة الإسلامية تحقق العدالة، وكما قال ابن القيم: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث- فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها. وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل. فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح. فهي بها الحياة، والغذاء، والدواء، والنور، والشفاء، والعصمة. وكل خير في الوجود، فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها. وكل نقص في الوجود، فسببه من إضاعتها. ولولا رسوم قد بقيت؛ لخربت الدنيا؛ وطوي العالم. وهي العصمة للناس، وقوام العالم، وبها يُمسك الله السماوات والأرض أن تزولا. فإذا أراد الله ﷻ خراب الدنيا، وطي العالم، رفع إليه ما بقى من رسومها. فالشريعة التي بعث الله بها رسوله، هي عمود العالم، وقطب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة" (إعلام الموقعين ٣/٣).

١٣٩ هذا على حسب إحصاء أجري عام ١٩٠٠م. ولكن هذا العدد تزايد جدًا. [المعرب]

يبلغ عدد نصف الأهالي، كولاية "أوفا"[140]. وفي بعضها يقل عددهم.

ففي قضايا ميراث المسلمين ومخاصماتهم، تسير المحاكم الروسية حسب نصوص الشريعة المحمدية. وذلك مما يدعونا إلى إنعام النظر في هذا الأمر.

إن المسلمين القاطنين في روسيا- أوروبا يخضعون دينًا لرئيسين روحيين عظيمين. أحدهما يقيم في ولاية القرم[141]. والثاني في ولاية أورنبرج[142].

---

[140] أوفا: من أهم المدن الروسية. عاصمة جمهورية بشكرتوستان، أو بشكيريا. هي جمهورية من كيانات روسيا الفدرالية. وهي إحدي الجمهوريات الروسية التي تُحكم ذاتيًا، وتنتسب إلى شعب الباشكير، أحد شعوب الأمة التركية. وصلهم الإسلام مبكرًا في العصر العباسي الأول. ويعتنقون جميعهم الإسلام، وجميعهم أحناف. توجد جمهورية بشكيريا فى القسم الجنوبي من جبال أورال، تحدها جمهورية تتاريا من الغرب، وأورنبرج من الجنوب، وسيبريا من الشرق والشمال. وهذا الموقع يتوسط حركة الاتصال بين قارتي آسيا وأوروبا؛ ولهذا قام الباشكير بدور هام في نشر الإسلام بين الشعوب المجاورة والعابرة بين القارتين. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[141] ولاية القرم: شبه جزيرة القرم واحدة من أجمل بقاع العالم؛ وهي جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن جمهورية أوكرانيا؛ حيث تقع جنوب البلاد ويحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب، على حين يحدها من الشرق بحر أزوف، ومساحتها ٢٧٠٠ كيلومتر مربع، وسكانها ٢,٥ مليون نسمة. ويشكل الروس حوالي ٥٠ ٪ منهم، والأوكران ٣٠ ٪، والباقي من التتار المسلمين. وأهم مدنها هي العاصمة سيمفروبل، وكان اسمها فيما مضى "أق مسجد"، أي المسجد الأبيض، قبل أن يستولي عليها الروس.

تولى الحكم في إمارة القرم الحاج دولت خيري في عام ١٤٢٨م. وخضعت الإمارة لحكم العثمانيين في عام ١٥٢١م. وحاصر محمد خيري موسكو، وأجبر حاكمها واسيلي على دفع الجزية، وتولى دولت خيري فتح موسكو عام ١٥٧١م، إلا أنه سرعان ما قلب الزمن ظهر المجن لإمارة القرم، فقام بطرس الأول عام ١٦٧٨م بمحاصرة القرم التي أسقطت في عهد الإمبراطورة "انا أوانوفنا" عام ١٧٣٦م، واحتلت الجيوش الروسية عاصمة القرم بخشراي، وأحرقت الوثائق التي كانت تعد ذخيرة علمية لا تقدر بثمن، وكانت بمثابة رمز تاريخي للشعب التتري. (إسلام أون لاين.نت ١٩٩٩-٢٠٠٦).

[142] ولاية أورنبرج: جمهورية شكالوف (أورنبرج)، توجد في حوض نهر أورال، وإلى الجنوب من باشكيريا. و تشغل القسم الأوسط من حوض أورال. وتشترك حدودها الجنوبية مع باقي روسيا الاتحادية. وتبلغ مساحتها (٨٥٠٠٠) كيلومتر، وسكانها ٢ مليون نسمة، وكانت تسمى حتى عهد قريب أورنبرج، وكذلك كان اسم

وأما مسلمو القفقاس، فينقسمون إلى قسمين: سنية، وشيعية. يقيم رئيساهما في مدينة "تفليس"[١٤٣]، عاصمة تلك البلاد.

ورؤساء الدين هؤلاء يقضون في مصالح المسلمين، من زواجهم، وأحكام دينهم، وإرثهم. وفي قضايا الإرث خاصة يكونون وسطاء للتراضي والصلح بين الورثة. وإذا لم يستطيعوا ذلك، فإن الورثة يترافعون أمام المحاكم الروسية، التي تحكم لهم حسب نصوص الشريعة الإسلامية- كما قدمنا.

وإذا أجلنا الطرف في هذا النظام المطابق لنصوص المجلد العاشر، بخصوص إرث المسلمين، فلا يبقى في نفوسنا ريب أن هؤلاء يترافعون في مسائلهم الدينية لدى أئمتهم الذين يؤلفون محكمة، لا يقبل حكمها النقض والإبرام. وأما في القضايا العامة، وعلى الأخص قضايا الإرث، فإنهم يترافعون أمام المحاكم الروسية، التي تقضي لهم أيضًا حسب نصوص شريعتهم المرعية، والموضوعة بين بنود قوانيننا الخاصة بالمسلمين، وعليها ذيول شتى بخصوص إرث المسلمات لأزواجهن.

وهنا نورد نص الفقرة الأخيرة من قانوننا الذي يصرح بذلك في قوله:

"في قضايا إرث المسلمين، وكذلك في جميع قضاياهم العامة، ينبغي على القضاة الروس أن يسيروا طبقًا لنصوص الشريعة الإسلامية".

ولا أدري لماذا تفضل حكومتنا المسلمين على اليهود من رعاياها، مع أن

عاصمتها، ثم تغير إلى شاكالوف، وأرادها السوفيات جمهورية تفصل بين مسلمي وسط آسيا، حيث أكبر تجمع إسلامي في الاتحاد السوفياتي وقتها، وبين مسلمي حوض نهر الفولجا. وذلك ليجولوا دون تكتل المسلمين، وليفتتوا وحدتهم. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

[١٤٣] تفليس: هي عاصمة جورجيا، وأكبر مدنها. سماها عرب العصور الوسطى: "تفليس"، واسمها الآن تبليسي. ٧٥٪ من الشعب الجورجي يتبعون المذهب الأرثوذكسي المسيحي. و١٣٪ مسلمين. و٣٪ الباقين يتبعون مذاهب وديانات أخرى، مثل: الكاثوليكية، واليهودية. وهناك نسبه بدون ديانة.

تلمودهم يتضمن شرائع مختلفة، ونواميس متعددة لجميع ظروف اليهود وأحوالهم المدنية والدينية.

وإذا فرضنا بأن ذلك التفضيل ناجم عن حصول المسلمين عندنا على حقوق وامتيازات أكثر من اليهود؛ وأن شرائع التلمود غير وافية أو تامة كالشريعة المحمدية، فإنه كان يمكننا الوقوف عند هذا الحد في الكلام، ونرضى بسير الأحكام التي ذكرناها على محورها ومجراها، غير أن محاكمنا لحد الآن لم تتمكن من السير على قاعدة معلومة محدودة، لكي تقوم بما عهد إليها من الواجب الملقى على عاتقها. ذلك لأن قوانين الشريعة الإسلامية غير مرتبة الوضع.

ومن جهة أخرى، فإنه لا توجد في بنود نُظمنا صراحةً أحكامٌ ترشد القضاة إلى طريقة معلومة ليسيروا بموجبها. وتلك النظم الإسلامية المعروفة بالشريعة تؤلف مجموعة أجوبة مختلفة لأسئلة متعددة، بخصوص الحقوق والأحكام، قد وضعها ألوف من المشترعين المسلمين. وكلهم من رجال الدين الذين وضعوها باللغة العربية، طبقًا لأحكام القرآن ونصوصه. وقد اجتمع من هذه القواعد والأجوبة منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا عدد لا يحصيه حاسب.

وقد اجتهد علماء العرب[١٤٤] في جمع شتات قواعد تلك الشرائع في مجموعات خاصة، بقصد نشرها، وتسهيل وجودها، والرجوع إليها عند مسيس الحاجة.

وترجم أكثر هذه الكتب إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية. وإنما لم يترجم منها إلى اللغة الروسية سوى الكتب التالية:

أولا: مجموعة عقائد الشيعيين وشرائعهم. ترجمة الأستاذ ميرزا قاسم، في عامي (١٨٦٢م)، و(١٨٦٣م).

---

[١٤٤] وعلماء المسلمين أيضًا اجتهدوا.

ثانيًا: كتاب شريعة السنيين. ترجمة غورديكوني عام (١٨٩٣م)، تحت اسم الهداية.

ثالثًا: نظام إرث المسلمين. ترجمة العالم موخين عام (١٨٩٨م).

وهذه الكتب الثلاثة نافعة جدًا لدرس الشريعة الإسلامية.

وكما أشرنا آنفًا، فإن بنود المجلد العاشر من النظام الروسي، لا تصرح للمحاكم الروسية صراحة تامة بالاستناد على نظام إسلامي معروف أو مترجم للغة الروسية. ولذلك كان القضاة في أكثر القضايا يقعون في أشد الارتباك، ولا يجدون لهم مخرجًا من تلك الحالة الحرجة، سوى الكتابة إلى أئمة المسلمين يسألونهم حل مشكل تلك القضية، فيجاوبونهم عليها بذكر فقرة الشريعة الموافقة لحل تلك القضية حلا صحيحًا عادلا، حتى يبنوا حكمهم عليها. ولكن شوهد كثيرًا بأن تلك الفقرات المرسلة من رجال مختلفين لحل قضية واحدة تناقض الواحدة الأخرى.

وعدا ذلك، فإن نظام الإرث واسع جدًا. وهو أعقد فصول الشريعة؛ ولذا جُعل علمًا مستقلا، لا يدركه إلا بعض أئمة المسلمين الذين يسمون "القاسم"[١٤٥]. والقضاة الروسيون يصعب عليهم درس هذا العلم الواسع، أو درس الشريعة الإسلامية؛ لجهلهم اللغة العربية الموضوعة بها.

ثم إنه لا يتسنى لإحدى المحاكم أن تصدر حكمًا بإرث لو لم يرضخ له المترافعون الورثة. فلو رفعوه إلى محكمة أعلى، فربما نقضت هذه المحكمة بعض الحكم الابتدائي؛ استنادًا على فتاوى أئمة المسلمين الموجودين بالقرب منها. وبذلك تخالف الحكم الأول الذي أصدرته المحكمة الابتدائية؛ طبقًا لفتاوى أئمة المسلمين الذين أفتوا لها بتلك الفتوى؛ وكانت فتواهم مخالفة لفتوى الآخرين.

---

[١٤٥] يطلق علماؤنا على من أحاط بهذا العلم لفظ: "الفَرضي". أي الذي يجيد علم الفرائض، وهو المواريث.

وكثيرًا ما تتصل تلك القضايا إلى مجلس الشيوخ الذي لا يجد أيضًا إلى حلها سبيلا، سوى الاستناد على فتاوى الأئمة.

وبالاختصار فإن قضايا إرث المسلمين وغيرها تسبب لمحاكمنا ارتباكًا عظيمًا، هي في غنى عنه. وينجم أكثره من عدم معرفة قضاتنا الشريعة الإسلامية. وأنى لهم ذلك؟

ثم استطرد الكاتب كلامه فقال:

"ولقد طالعت مقالة في مجلة وزارة الأديان بهذا الشأن، ذيَّلها كاتبها بعدة آراء إذا سارت عليها حكومتنا، تخلصت من تلك الحالة الحرجة. ولإتمام الفائدة أذكر تلك الآراء:

أولا: ينبغي أن يضاف إلى نموذج مدارس القضاة الحقوقية درس الشريعة الإسلامية، حسب الطريقتين السنية والشيعية وعلم الإرث.

ثانيا: ينبغي على وزارة الأديان أن تنتخب عدة علماء أفاضل، لهم معرفة تامة وخبرة زائدة بالشريعة الإسلامية، وتعهد إليهم ترجمة تلك الشريعة إلى اللغة الروسية؛ ليسير بموجبها القضاة.

ثالثًا: ينبغي أن تضاف إلى بنود النظام المدني بنود جديدة، يبين فيها كيفية استعمال الشريعة الإسلامية، والطريقة التي ينبغي على القضاة أن يسيروا عليها في تطبيق فتاوى الأئمة على نصوص الشريعة، وإيجاد الفقرات الموافقة من الشريعة للفصل في منازعات المتخاصمين، على نحو عادل، غير مجحف بحقوق أحد.

رابعًا: ينبغي على محاكمنا أن تسير أيضًا على نظام محاكم تركستان[١٤٦] الأهلية.

---

[١٤٦] تركستان: معناها أرض الترك. ولا يزال الأتراك يتمسكون بإطلاق هذه التسمية على المنطقة التي كانت تتجول فيها القبائل التركية قبل الإسلام. و التركستان أوسع جغرافيا من المنطقة التي أطلق عليها المسلمون

خامسًا: ينبغي على حكومتنا أن تنتخب من المسلمين أئمة ذوي أهلية وكفاءة، تعينهم معاونين للقضاة الروس في حل مسائل الإرث، والحكم في بعض القضايا، وتسن لهم نظامًا يسيرون عليه، وترتب لهم رواتب شهرية".

ثم ختم الكاتب مقالته بقوله: "ولنا وطيد الأمل بأن حكومتنا تعير التفاتها إلى هذه المسألة الخطيرة، التي لا يحسن السكوت عليها".

وفعلا لبَّت الحكومة الروسية نداء هذا الكاتب الحر المعتدل، ونداء غيره من الكتَّاب الروسيين المنصفين، وعهدت إلى لجنة من الكُتاب المسلمين الروس والمستشرقين تعريب الشريعة الإسلامية؛ ليسير بموجب نصوصها القضاة الروسيون في القضايا الخاصة بالمسلمين.

* * *

عناية المسلمين الروس بحفظ القرآن:

ومما يحسن نشره، ويطيب ذكره: أن للمسلمين الروسيين عناية خاصة لا توجد لدى غيرهم، وهي حفظ القرآن الكريم، ولاسيما تحفيظه للفتيات.

وإتمامًا للفائدة أنشر مقالة بهذا الصدد، كنت نشرتها في العدد (٣٧٢٥) من جريدة المؤيد الغراء (الصادر في ١٥ أغسطس، سنة ١٩٠٢م)، عرَّبْتُها عن جريدة

هذا الاسم، حين قالوا: "بلاد ما وراء النهر". كما أنها أوسع من التعبير السائد الآن: "آسيا الوسطي". وهو الذي أطلقه عليها السلطات السوفيتية. أما تركستان الحقيقية، فتنقسم إلى: تركستان الغربية، وهي "آسيا الوسطى"، وتركستان الشرقية، وهي ضمن دولة الصين، ويسكنها أغلبية مسلمة، ويطلق الصينيون عليها "سنكيانغ". ويعاني أهلها أشد أنواع الاضطهاد (شمس الإسلام، ع٢، ربيع أول ١٤١٤هـ/سبتمبر ١٩٩١م، ص٢٩٩).

"ترجمان" الروسية الإسلامية، وهاهي:

"جرى في التاسع من شهر يوليو الماضي امتحان مدرسة البنات، تلك المدرسة التي تقع تحت إدارة حضرة الفاضلة بمبة خانم بولاتوقوف. وقد حضر الامتحان ما ينيف على مئة سيدة من والدات الطالبات وقريباتهن. فكان عدد المنتهيات اللواتي نلن الشهادة الابتدائية باللغة العربية والروسية والدين والحساب، وغير ذلك من العلوم عشر فتيات. وقد أجادت تلميذات المدرسة الأجوبة، وشنفن أسماع الحاضرات بتلاوة القرآن الشريف.

وفي الحادي عشر من الشهر المذكور، جرى في مسجد المدينة امتحان إحدى طالبات هذه المدرسة، وهي طالبة تبلغ من العمر تسع سنوات- في حفظ القرآن واستظهاره، أمام جمهور غفير من الوجهاء والأعيان. وقد فازت تلك الفتاة في الامتحان فوزًا مبينًا، وتلت القرآن جميعه في ساعات متوالية، فلقبت بـ "الحافظة". وحسب العادة الجارية عندهم، ألبسها الإمام عمامة خضراء صغيرة. وعلى إثر الامتحان أَوْلَمَ والدُ الفتاة السيد حسن النحاس وليمة فاخرة لجميع الحاضرين.

ثم قالت الجريدة عن حفظ القرآن ما مؤداه: إن استظهار القرآن وحفظه عادة قديمة عند المسلمين. ولا تخلو الآن عندنا مدينة أو قرية من حافظين وحافظات للقرآن الكريم. وهذه العادة كانت لها أهمية عظمى في صدر الإسلام؛ لحفظ القرآن سالمًا من التغيير والتحريف؛ وهذا راجع لعدم انتشار المطابع في ذلك الوقت، وأن نسخه الخطية كانت قليلة جدًا؛ ولذا كان يحفظه الحافظون جيلا عن جيل. فلما شاعت المطابع طبع منه ملايين من النسخ.

ومن ذلك أيضًا أن حضرة الفاضلة السيدة صفية علية خانم، عقيلة سليم أفندي جانتورين، حصلت من وزارة المعارف على رخصة إنشاء مكتب. وبعد أن

فازت بضالتها المنشودة، شادت من جيبها الخاص دارًا فسيحة للمدرسة، لتعليم الأولاد فيها اللغتين العربية والروسية، وصناعة الأحذية، والحدادة. وبذا استحقت هذه الفاضلة الشكر.

وقد أخذت بعد ذلك النهضة بين مسلمي روسيا تسير سيرًا مطردًا. وظهر بينهم من نوابغ الكتَّاب والمؤلفين الذين تلقوا العلوم في مدارس روسيا وأوروبا، وأخذوا قسطًا وافرًا من مدنية الغرب، مثل صدر الدين أفندي مقصودوف، أحد النواب المسلمين في مجلس الدوما، وهو الذي خطب من عهد قريب خطبة في مجلس الدوما، كان لها دوي هائل في جميع أنحاء روسيا، أنحى فيها باللائمة على بعض الموظفين الروسيين الذين يضطهدون في بعض الجهات المسلمين، ويصادرون مدارسهم.

ولكنْ لدى إمعاني النظر في خطبته، ألفيته يبالغ في سرد الحوادث، وكأني به كان يبالغ تلك المبالغة؛ ليجعل لخطبته تأثيرًا في النفوس؛ ويحرك الحكومة على الاقتصاص من الموظفين الذين يخالفون القوانين، ويعتدون على الرعية بدون حق. والذي أعلمه بنفسي، وسمعته من أفواه الكثيرين من كبار مسلمي روسيا وسراة القوم: أن المسلمين في روسيا يرفلون بحلل الصفاء، ويرتعون في رياض الهناء.

* * *

دفاع كاتب روسي مسلم عن الإسلام:

ومن نوابغ الكتاب المسلمين في روسيا الكاتب الشهير أحمد بك أجايف، المقيم الآن في الآستانة العليَّة، يحرر بجرائدها. وقد رأيت لحضرته في بعض مؤلفاته

مقدمة دافع بها عن الدين الإسلامي، وذكر الأسباب التي حملت الأوروبيين على الطعن على ذلك الدين؛ لسبب جهلهم معتقداته. وقد رأيت أن أنقلها عنه بالحرف الواحد.

قل الكاتب- ذاكرًا من الترهات والاختلاقات التي كان ينسبها الأوربيون للدين الإسلامي- ما يلي:

"إن سواد الأوروبيين الأعظم، يُسَلِّم بداهة بالأمور دون بحث لأسبابها ونتائجها؛ وذلك بالنظر لاستيلاء العقائد الفاسدة على عقولهم، ورسوخها في أذهانهم، سواء كان في أوروبا أو روسيا؛ فإنهم يعتقدون اعتقادًا متينًا بأن الدين الإسلامي سبب في جميع ما يجري في البلاد الإسلامية من تأخر، ولولا وجوده لكانت الحل هناك على غير ما هي عليه الآن.

والمعتقدون بهذا الاعتقاد يرون أن المسلمين- ما داموا مسلمين- لا يستطيعون الإقبال على المدنية الأدبية العمومية. ثم إنهم- أي الغربيين- **يزعمون أن الشر جميعه متمثل في الإسلام. ويتصورون أن أعظم وسيلة تنقذهم منه هي محو الدين نفسه، ومحقه من وجه الأرض"[١٤٧]!**

وهذه الأفكار رسخت في العقول منذ أجيال عديدة سالفة، من جرَّاء الخصام والشقاق والنزاع العنيف بين الغرب والشرق، وذلك في خلال قرون مديدة؛ بسبب اختلاف الإسلام والمسيحية. الأمر الذي يظهر معه للرجل الساذج، الذي لم يعتد التبصر والتفكر والتروي، بأن هاتين الديانتين على طرفي نقيض في الجواهر والمعتقدات. ولا يمكن التوفيق بينهما.

---

[١٤٧] يبين الله هذا المكر السيئ بقوله: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (الصف:٨-٩).

وأخيرًا فإن هذا الاعتقاد ساد مدة طويلة بين أهل الغرب، يدلنا على ذلك دلالة واضحة الآداب البيزنطية واللاتينية المضادة للإسلام. ومن أراد زيادة إيضاح عليه أن يقف على مؤلفات ومخلفات العصور الوسطى، ولاسيما الفترة التي حدثت فيها الحروب الصليبية.

والإنسان يتأثر تأثرًا شديدًا، تهتز له أعصابه لدى مطالعته تلك الترهات والمثالب والمطاعن، التي كان يُنشدها شعراء الرومان، ومغنوه الساذجون. وينادي بها النسَّاك، ورجال الدين في المعابد والمجتمعات العامة والبراري، يصفون فيها شخص سائق الجمال وتعليمه. وهو الذي أطلقوا عليه اسم "النبي العربي الكاذب"[١٤٨].

ومن الأمور المضحكة المبكية، نظر أهل الأجيال الوسطى إلى الإسلام واعتقادهم به، فكان الشعب يُصدق بَداهة كل افتراء على الإسلام وأتباعه. وقد بالغوا في استنباط المفتريات والسفاسف لدرجة لا يجوز تصديقها؛ لما فيها من الغرابة المنكرة! وقد أدى بهم الجهل إلى تصوير محمد بهيئة شيطان ذي قرنين، وأطلقوا عليه "ضد المسيح"[١٤٩].

---

[١٤٨] أنظر تاريخ الآداب الفرنسية والآداب البيزنطية ضد الإسلام، تأليف جمعية المبشرين في قازان. [المعرب]

[١٤٩] يقول الكتاب المقدس: "أيها الأولاد! هي الساعة الأخيرة. وكما سمعتم: إن ضد المسيح يأتي. قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون. من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة" (١يو ٢:١٨). ويبين الكتاب المقدس من هو "ضد المسيح": "من هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح؟! هذا هو ضد المسيح، الذي ينكر الآب والابن" (١يو ٢:٢٢).

ونقول لهؤلاء: كيف تزعمون أن محمدًا ضد المسيح، وهو لم ينكره، بل اعتقده مسيحًا من الله، وأخًا له في النبوة والرسالة؟! كما في القرآن الكريم: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} (النساء:١٧١).

والراسخ في أذهان القوم بأنه يفسد الناس، ويخرجهم عن دينهم؛ ولذلك لابد أن يزج في سعير النار، حيث لا يقر له فيها قرار. ثم إن "تيورين" الكاذب المفتري ألَّف روايةً، صَوَّر فيها محمدًا بهيئة الصنم "ماهوم"[150]، الذي كانوا يعبدونه في "قادس"[151]، ولم يجسر كارلوس العظم على تحطيمه وتكسيره؛ خوفًا من الأبالسة المختفية في جوفه.

ومما مَرَّ يتضح للقارئ: أن العقول النيِّرة كانت منغمسة بمثل هذه الاعتقادات الفاسدة، والمفتريات الباطلة، البعيدة عن الحقيقة بعد السماء عن الماء. وقد أجمعوا عليها كلهم، حتى إنه لو قام بينهم في مثل ذلك الوقت رجل، كشف الله له عن نور الحقيقة، وجاهر بها، لكنت ترى الناس يصبون عليه صواعق سخطهم ونقمتهم. فقد كادوا يحرقون "دانتي" في النار؛ لأنه عَدَّ محمدًا- في "روايته الإلهية"[152]- بين الرجال العقلاء المصلحين، ذوي المدارك السامية. فاضطر لكي

---

[150] كان المنشدون المسيحيون في العصور الوسطى يعدون المسلمين مشركين غير مؤمنين، وعبدة أوثان مارقين. وقد جعلوا لهم ثلاثة أصنام: "ماهوم"، و"بافوميد"، و"ماهوميد". ومن المستغربات قولهم: إن محمدًا- الذي هو عدو الأصنام، ومبيد الأوثان- كان يدعو الناس إلى عبادته في صورة وثن من ذهب. (انظر:الإسلام خواطر وسوانح:هنري دي كاستري، دار الفرجاني، القاهرة، ص١٥).

[151] قادس: قادش واحدة من أعرق المدن الأسبانية الساحلية في جنوب الأندلس، وهي عاصمة لمقاطعة قادش، ومبنية على شبه جزيرة ضيقة وطويلة، تمتد إلى داخل خليج.

[152] الرواية الإلهية: يقصد بها الملحمة الإيطالية: الكوميديا الإلهية "للشاعر "دانتي إليجيرى" (١٢٦٥-١٣٢١م) التي كتبت في القرن الرابع عشر الميلادي، والتي تندرج تحت قائمة الأدب الغربي المتأثر بالأدب العربي، وهذا التأثر واضح بالتيار الإسلامي المتأجج قبل فترة كتابتها. ويبدو فيها التأثر الشديد بقصة الإسراء والمعراج، فالملحمة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء هي: الجحيم، والمطهر، والفردوس. ومع ذلك يضع دانتي المسلمين الذين جاؤوا بعد المسيحية، في نفس فئة الوثنيين الملعونين مع الشخصيات اللامعة التي عاشت قبل المسيحية. ومع أن القرآن ينص على نبوة عيسى، نجد أن دانتي يفضل النظر إلى المسلمين وكبار فلاسفتهم باعتبارهم جهلة بالمسيحية من الأساس!

ينجو من سخط الشعب، الذي تهدده بالقتل، أن يضعه في عِداد الرجال الأشرار، الذين عاثوا في البلاد فسادًا، وبثوا بذور الشقاق والنفاق والخصام بين معاصريهم، مثل: "فراد التشينو"، و"برتران بورن"، وغيرهما من اللذين هم في عرف الشعب من سكان جهنم.

ثم إن المصور الإيطالي الشهير "أركانيوس"، وضع عدة رسوم للأشخاص الذين يحتقرون جميع الديانات على الإطلاق، واتخذوها لمجرد الهزء والسخرية، فصورهم واقفين في جهنم، ولهيب النار يكتنفهم من جميع الجهات، وفي مقدمتهم محمد، و"أفيردوئيس" (الوليد بن رشد)، والمسيح الدجال، أو ضد المسيح.

وبوجه الإجمال، فإن الأجيال الوسطى كما قال "أرْنِستْ رِنان": قد اشتهر أهلها بالحدة، وعدم التروي. ولم يكن عندهم درجة متوسطة لأمر من الأمور. فكان محمد في عرفهم خَدَّاعًا ماكرًا، متخِذًا سرقة الجِمال مهنة. وقالوا بأنه كاردينال سعى للحصول على وظيفة البابوية فلم يفز بها، فوضع ديانة جديدة لكي ينتقم من زملائه الكرادلة... إلى آخر ما ضارع ذلك من الأوصاف المجردة عن الإنصاف، ولا تنطبق على العقل السليم[١٥٣].

تمر الأجيال، وتنقضي السنون، ولا تزال سفاسف الناس وتُرَهَاتهم، وأفكارهم السخيفة الواهية، تضغط على العقول النيِّرة، كما كانت في العصور المظلمة. إن "بيبلياندر"[١٥٤]، و"هوتينبجر"، و"ماراجي"[١٥٥]، وغيرهم أخذوا يدرسون القرآن

---

[١٥٣] أنظر: تاريخ الأديان لأرنست رنان. ورواية محمد لمؤلفها ف. ميشيل. [المعرب]

[١٥٤] بيبلياندر (Bibliander): مستشرق سويسري، ولد في مدينة شوفنستل سنة ١٥٠٤م. له كتاب ألفه عام (١٥٤٨م)، سماه "البحث في الأصل المشترك للغات والآداب جميعا"، أرجع فيه اثنتي عشرة لغة إلى مصدرها العبراني- فيما يظن. وذلك تشييدًا منه للنظرية القائلة بأن العبرية هي أم اللغات!

درسًا مدققًا على قصد تقويض أركانه. وأما "لبنتس"، و"شكسبير"[١٥٦]، فإنهما تكلما كثيرًا عن نبي المسلمين بقصد إضحاك الجمهور وتسليتهم. وأما "فولتير"[١٥٧] فإنه التمس الغفران من البابا بواسطة تقديمه له رسالة الطعن

---

[١٥٥] ماراجي: مستشرق ترجم القرآن إلي اللاتينية، من النسخة العربية مباشرة، وأتمها في العام ١٦٩٥الميلادي، تحت اسم "بادوا". وكانت مرفقة بكثير من الملحوظات المغلوطة والافتراءات النابعة من التعصب والهوى. والبغض والعداوة للإسلام والرسول الكريم ﷺ. (موقع سراج seraj.ir).

[١٥٦] شكسبير: أديب وكاتب مسرحي إنجليزي. ولد في ٢٦ أبريل ١٥٦٤م. يعد من أكبر أدباء إنجلترا. أهم أعماله: "هاملت"، "عطيل"، "الملك لير"، "ماكبث"، "تاجر البندقية"، "روميو وجولييت".

[١٥٧] فولتير: كاتب وفيلسوف وصحفي فرنسي. ولد في ٢١ نوفمبر سنة ١٦٩٤م. صاحب النهج الساخر الذي تعامل به مع معلميه منذ كان طفلاً، وقد حدث أنه تلقى درسًا في عقيدة التثليث على يد أحد القساوسة، الذي كان يشرح لتلاميذه: أن الثلاثة واحد. فلما ترك القس الفصل لمدرس الحساب، بدأ هذا الأخير يدربهم على جمع الأعداد، ثم جعل يختبر فهمهم للدرس؛ فسأل فولتير: واحد زائد واحد؟ فأجاب فولتير: إنهما اثنان. فقال الأستاذ: فإذا أضفنا إليهما ثالثا، أجاب الصغير: يصبح الثلاثة واحدًا.. ويكرر الأستاذ السؤال مستعينا بوسائل الإيضاح، فلا يغير فولتير من جوابه.. وحينئذ لم يجد المدرس بدًا من توبيخه؛ فصرخ: يا حمارا! ولكن فولتير الصغير ردَّ بقوة: الحمار هو القس يا أستاذ، فهو الذي أرادنا أن نؤمن بأن مجموع الثلاثة واحد.

وفي عنفوانه صب جام غضبه على فرنسا والفرنسيين؛ لأنهم يأنفون من سلوك درب العقل والتسامح الديني. فقد كان لا يوجد في فرنسا سوى دين واحد، ومذهب واحد فقط، وهو المذهب الكاثوليكي البابوي الروماني. وكل ما عداه كان ممنوعًا منعا باتا.

ولم يكن فولتير ملحدًا كما ساد الاعتقاد في عصره، لكن كانت له آراء خاصة، لم تكن الكنيسة لترضى بها لجرأتها، كقوله: "أنا أؤمن بوجود إله واحد، مبني على العقل". وقال أيضًا: "لو لم يكن الله موجودًا لوجب علينا أن نوجده". ويبين فولتير أن الله ليس وقفًا على دين معين، إنما هو "الكائن الأسمى، والعقل المدبر الذي يدير الكون". وكان يردد شعارًا دائمًا: "اسحقوا الخرافة، والتعصب الديني". وطوال حياته، عمل على أن ينزع صفة العنف عن الكنيسة لتحل محلها صفة الشفقة أو الرحمة.

تغير فكر فولتير، إذ ألف كتابه "بحث في العادات" سنة ١٧٦٥م، فمدح به الإسلام، وأشاد بالرسول محمد ﷺ، وبالقرآن. وقد نعت محمدا بأنه (مع كونفوشيوس، وزرادشت) أعظم مشرعي العالم. وجدير بالذكر هنا أن كتاب فولتير هذا، يعكس تبدل آراء هذا المفكر الفرنسي الكبير عن النبي محمد ﷺ. فكتابه السابق "التعصب

المشهورة التي عنوانها "محمد". وقد نسب بها إلى النبي محمد أمورًا منكرة لم تخطر بباله، ومنافية على خط مستقيم لروح تعليمه ومبادئه.

ثم إن الجيل التاسع عشر، المسمى بحق جيل العلم والانتقاد الصحيح، لم يخلُ من مثل هذه المختلقات والمفاسد، التي جاهر بها بعض قادة الأفكار، وأصحاب العقول الممتازة. فقد وضع العالم الإنكليزي الشهير "كارلوس فورستير"، عام (١٨٢٩م) مجلدين ضخمين، وقعا موقع الاستحسان والاحترام في نفوس رجال الدين؛ لأنه حاول أن يبرهن فيهما بالأدلة الكثيرة على أن محمدًا هو قرن الكبش الصغير، الوارد ذكره في الإصحاح الثامن من نبوة دانيال[١٥٨]، وأن قرن الكبش

أو النبي محمد"، وصف الرسول محمدا ﷺ، بأنه منافق، ومخادع، ومحب للملذات الجسدية، ومستبدا! تنزه رسول الله ﷺ عن كل ذلك.

نقل عنه قوله: "إن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية؛ اقتداءً بالنبي محمد".

رحل فولتير في (٣٠ مايو ١٧٧٨م)، وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام بعض الأصدقاء المقرّبين، قال بالكلمة الواحدة: "أموت في هذه اللحظة وأنا أشعر بعبادتي الله، وبحبي لأصدقائي، وبعدم كرهي لأعدائي، وبرفضي المطلق للمعتقدات الباطلة".

[١٥٨] في سفر دانيال: "ورأيت في الرؤيا، وأنا عند نهر أولاي٣ فرفعت عينيّ ورأيت. وإذا بكبش واقف عند النهر، وله قرنان. والقرنان عاليان، والواحد أعلى من الآخر، والأعلى طالع أخيرا.٤ رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا، فلم يقف حيوان قدامه، ولا منقذ من يده. وفعل كمرضاته وعظم.٥ وبينما كنت متأملا، إذا بتيس من المعز، جاء من المغرب على وجه كل الأرض، ولم يمسّ الأرض. وللتيس قرن معتبر بين عينيه.٦ وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذي رأيته واقفا عند النهر، وركض إليه بشدة قوته.٧ ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش، فاستشاط عليه، وضرب الكبش وكسر قرنيه، فلم تكن للكبش قوة على الوقوف أمامه، وطرحه على الأرض وداسه، ولم يكن للكبش منقذ من يده.٨ فتعظم تيس المعز جدا. ولما اعتزّ انكسر القرن العظيم، وطلع عوضا عنه أربعة قرون معتبرة، نحو رياح السماء الأربع.٩ ومن واحد منها خرج قرن صغير، وعظم جدا، نحو الجنوب، ونحو الشرق، ونحو فخر الأراضي.١٠ وتعظم حتى إلى جند السموات، وطرح بعضا من الجند والنجوم إلى

الكبير هو البابا[159].

ولكن النصف الثاني من الجيل التاسع عشر، أشرقت فيه أشعة العلم، وأماطت النقاب عن الشرق وتاريخه. وذلك أنه عندما ازدادت المواصلات بين الشرق والغرب، بواسطة انتشار السكك الحديدية، وازداد توافد الغربيين إلى الشرق؛ حيث دفعتهم المصالح التجارية والصناعية إلى الضرب في طول البلاد وعرضها، فقاد العلمُ وحبُّ الاستقرار علماءهم وأصحاب الأفكار الفياضة منهم إلى درس أخلاق وعادات أهل الشرق المتدينين بغير دينهم، ودَرْس أحوال البلاد في نفس البلاد.

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل تجاوزوه إلى مطابقة الحاضر بالزمن الغابر، مطابقة مبنية على العلم والتحقيق والكتابات الماضية. وأبدوا في خلال ملاحظاتهم على الأدوار العديدة التي تقلبت فيها الأديان منذ ظهورها، وما تحملته من الانقلاب والتغيير. ولم يميلوا في عملهم هذا ودرسهم مع الأهواء، بل دونوا الحقيقة مجردة عن كل غرض فاسد، وميل منحرف[160].

وهذا يناقض حالة العلماء في الأجيال الماضية، الذين غَشِيَ التعصبُ الديني

الأرض وداسهم.11 وحتى لى رئيس الجند تعظم، وبه أبطلت المحرقة الدائمة، وهدم مسكن مقدسه.12 وجعل جند على المحرقة الدائمة بالمعصية، فطرح الحق على الأرض، وفعل ونجح".

[159] كشف النقاب عن الدين الإسلامي. وهو بحث في انتشار الدين وبقائه، على طريقة تؤدي إلى زيادة الاعتقاد في الدين المسيحي. [المعرب]

[160] أمثلة لهذه الدراسات: كتاب بروفيسور جون هك، وآخرين: أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، تعريب: د.نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م· وكتاب شارل جينيبر: المسيحية نشأتها وتطورها، ط٣، ترجمة: د.عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م·وكتاب موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

أبصارهم، وأسدل حجابًا كثيفًا على أفكارهم. فأعماهم عن المجاهرة بالحقيقة، وقادهم إلى الابتعاد عن جادة الحق والإنصاف. وقد تبعهم في ذلك سواد الناس الأعظم، الذين كانوا لزعمهم بأنهم حاملو الحق، فإنهم لا يستطيعون احتمال معتقدات غيرهم من الناس، والوقوف حيالهم موقف السكينة والرضا. بل يسفهونها، ويذهبون في انتقادهم كل مذهب.

أما في أيامنا الحاضرة التي أصبحت فيها الأديان مادة للمباحث العقلية؛ فقط لأنها فقدت مادة التعلق بها، ذلك التعلق الديني الشديد. ولا يهتم بها الناس الآن إلا لأنها من مظاهر النفس الإنسانية. ولم يعد الناس يتحاورون بشأنها، ولا يوجه كل صاحب دين إلى الأديان الأخرى أنواع السباب والمطاعن والتهكم[١٦١]، وأصبح المستشرق- الذي يهتم بأمور الأديان والوقوف على تاريخ الشرق، يخرج من تحت يده عملُه، كتحليل الكيماوي الذي يخرج من معمله. وتراه- أي المستشرق- يهتم بجميع العوارض والمظاهر اهتمامًا واحدًا، دون أن يفضل أمرًا منها على الآخر، وإنما ينشرح صدره، وتطيب نفسه، لدى وقوفه على مبتكرات الإنسان في كل آن وزمان، وإظهار قواه الفياضة[١٦٢].

ولذلك فلا عجب إذا شاهدنا في هذا العصر الانقلاب العظيم الشأن الذي أحدثه درس أحوال الشرق؛ فإنه غيَّر نظر العلماء السابق بشأن الأديان المختلفة

---

[١٦١] يصدق هذا على الغربيين إجمالا دون الشرقيين، حيث إن كل ما يتعلق بالدين عند الغربيين يركد في زاوية بعيدة من العقل، ويمثل رؤية باهتة لأحداث تاريخية ماضية، لا علاقة لها بالحاضر. أما عندنا فلا يزال الدين يحتل في نفوس الشرقيين المكانة السامية.

[١٦٢] هذا الوصف ينطبق على بعض المستشرقين الذين يتوخون الموضوعية ويتحلون بالنزاهة. ويظل بعضهم يحمل إرث الماضي البغيض، ويحاول تشويه الإسلام والمسلمين، ولاسيما المستشرقين اليهود، مثل: مرجليوث، وبرنارد لويس.

وشئون الشرق على العموم، ولاسيما بشأن النبي محمد وتعاليمه، فأصبح محمد في عرفهم ونظرهم ليس صورة للصنم "ماهوم"، ولا هو "ضد المسيح" المقيد في جهنم، ولا قرن الكبش الصغير الوارد ذكره في نبوة دانيال. بل هو ذلك المصلح العظيم الذي هزَّ العالم بتعاليمه ومبادئه وأفكاره السامية.

وهو الذي وضع أساس تعليمه[١٦٣]- ليس لأنه كان كاردينالا، ولم يفز بوظيفة البابوية، بل لأن فؤاده كان يلتهب غيْرة على الحق الذي شوهت وجهَه الشكوك، أو الاختلافات التي دخلت على هذا الحق- الذي نادى به في العالم ذلك "النبي العظيم"[١٦٤] قبل ظهوره بستة قرون، ولم يدرك جوهره تلاميذه النشيطون الغيورون، بل ذهبوا في تأويله كل مذهب عندما علَّموا الناس به، ولاسيما في البلاد العربية[١٦٥]. وقد ورد في القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك بأجلى بيان. وتأملوا فقط ذلك الشكران الجميل الذي جاهر به نبي المسلمين بشأن الصابئين، الذين ظنوا لأول وهلة أنه ينادي بتعليم المسيح[١٦٦].

ثم إن في آيات القرآن النازلة بشأن آلام عيسى[١٦٧]، وولادته[١٦٨]، وذكر مريم والدة

---

[١٦٣] لم يكن محمد واضعا لدين الإسلام، ولكن أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق إلى العالمين، كما قال سبحانه: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم:٣-٤).

[١٦٤] النبي العظيم: المقصود به هنا عيسى عليه السلام.

[١٦٥] ربما يقصد الكاتب هنا ما فعله أمثال "بولس" من تغيير للدين الذي كان عليه المسيح. فلم يقل المسيح نفسه بثالوث، ولا أقانيم، ولا تجسد، ولا خطيئة موروثة، ولا فداء. ولم يحلل الخنزير والخمر...إلخ.

[١٦٦] لم أفهم المراد بهذه العبارة، ولا يوجد نص إسلامي يفيد هذا المعنى. وربما يقصد الكاتب قول الله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:٦٢).

[١٦٧] آلام عيسى عند النصارى يقصد بها آلام الصلب- الذي لا يعتقده المسلمون. أما عند المسلمين، فتكذيب اليهود له، واتهامهم له بالسحر، كما بين سبحانه قال: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ

روح الله[169]، ترى التأثر ظاهرًا من كل كلمة منها، مقرونًا بمزيد التعظيم والاحترام. وفوق هذا وذاك فإن المسلمين يعظمون مريم أكثر من بعض الطوائف النصرانية، فهي في عرف المسلمين عذارء طاهرة صالحة[170]، قد اصطفاها وشرفها رب العالمين[171]. والنبي يظهر لها احترامًا دينيًا يفوق الوصف. حتى إنه عندما أراد أن يمتدح ابنته فاطمة قال: "فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران"[172].

ثم إن النبي ترك تعاليم عيسى كما هي، وجاءت الديانة المحمدية مطابقة لها،

اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الصف:٦).

[168] يقول الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً} (مريم:١٦-٢٦).

[169] يقول الله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (آل عمران:٤٥).

[170] يقول الله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} (التحريم:١٢).

[171] يقول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ} (آل عمران: ٤٢).

[172] أخرجه بهذا اللفظ أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري (١١٧٧٣). الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ(٣٨٧٣). وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة (٦٩٥٢). والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب فاطمة بنت رسول الله ﷺ (٤٧٣٣). وصححه الأرنؤوط، والألباني.

ونفت جميع المعتقدات الباطلة التي دخلت عليها، وشوهت جوهرها[١٧٣]، وورد في أمكنة كثيرة من القرآن ما مؤداه: وإني جئت لإثبات تعليم عيسى الحقيقي[١٧٤].

قال المستشرق الإنجليزي الشهير "ماكس موللر"[١٧٥]:

"سوف يعلم المسيحيون- بدهش عظيم- أن محمدًا أحد معضدي يسوع، وأن الديانة المحمدية ما هي إلا شيعة من شيع الديانة النصرانية[١٧٦]. وإذ ذاك يندهش

---

[١٧٣] جاء في الكتاب المقدس أن المسيح قال: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض. بل لأكمل" (متّى ١٧:٥). وهذا يصدق على كل نبي من أنبياء الله، فإن الأنبياء جاءوا بدين واحد، من لدن إله واحد. نعم تتعدد الكتب الإلهية، وتتغير الأحكام الفروعية، ولكن العقيدة واحدة، وأصول الدين لا تتغير. كما بين الله سبحانه بقوله: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} (النساء:١٦٣-١٦٥). وقال النبي ﷺ: "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي" (أخرجه أحمد في المسند، من حديث أبي هريرة [٩٢٥٩]. وصححه الأرنؤوط. وذكره الألباني في الصحيحة (٢١٨٢).

[١٧٤] راجع: ترجمة القرآن لسابلوجوف. [المعرب]

[١٧٥] ماكس موللر (١٨٢٣ـ١٩٠٠م): مستشرق بريطاني، وعالم لغوي. ولد في مدينة دسو بألمانيا، وانتقل إلى المملكة المتحدة في عام ١٨٤٦م. واستقر بها. أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة والدين. اهتم اهتمامًا خاصًا باللغة السنسكريتية الهندية القديمة، وبالفلسفة والديانات الهندية. من أشهر أعماله: "محاضرات في علم اللغة" (١٨٦١-١٨٦٣م). و"المدخل إلى علم الدين" (١٨٧٣م). (موسوعة مقاتل من الصحراء).

[١٧٦] القول بأن الإسلام ما هو إلا شيعة من شيع الديانة النصرانية، بعيد عن الإنصاف والتحقيق، ويقصد به الحطُّ من الإسلام. وهو كالقول بأن الشمس تستمد ضوءها من القمر! وهذا مما يتسع التدليل عليه، ولا تقوم به هذه السطور، ويكفي أن نذكر أن الشريعة الإسلامية بكل ثرائها وعمقها، ليس لها مثيل في الديانة النصرانية. وقد ظل النصارى في الشرق يأخذون بأحكامها في كثير من شئون حياتهم حتى وقت قريب، وخصوصًا في أحكام الوصية والميراث، ولا يزال لها تأثير للآن على التقنينات التي وضعوها في الأحوال

المسلمون والمسيحيون معًا؛ بسبب ما جاء في تاريخهما من الخصام والشقاق والعداء بسبب الدين"[177].

وقد وافق كثير من علماء أوروبا المستشرقين على رأي هذا العالم. وعضدهم في ذلك أيضًا كثير من الروسيين العقلاء ذوي الأفكار السامية، مثل: "فلاديمير سولوفييف"[178]، و"بيترون"[179].

والعالمة المشهورة مدام "ليبيديف"[180] التي تقيم معظم السنة في القاهرة، ويعرفها كثيرون من أفاضل ونبلاء ة وعلماء المصريين، فإنها وضعت عدة كتب بلغات مختلفة، دافعت بها عن الدين الإسلامي دفاعًا شديدًا، وأظهرت فضله. ولحضرتها مؤلفات كثيرة بشأن المرأة، حَرِيَّة بالمطالعة والاعتبار.

ولكن مع الأسف نقول: أن سواد الناس الأعظم لم يزل على غيه، تائهًا في فيافي الضلال، ولا يجنح إلى الحقيقة الثابتة التي أيدها علماؤه وقادة الأفكار منهم. بل مازال رازحًا تحت نير اعتقادات القرون الوسطى وخرافاتها بشأن محمد وتعليمه، ناسبًا ضعف الأمم الإسلامية في عصرنا الحاضر، وانحطاطهم السياسي

الشخصية. بل إن قانون الأحوال الشخصية لغير المسلمين في مصر مثلا ما هو إلا محاكاة للفقه الإسلامي في كثير من بنوده، وإن تعمد مخالفة الشريعة الإسلامية أحيانًا، دون أن يكون هناك مرجعية لهذه المخالفة!

[177] راجع: كتاب محمد والمحمدية لماكس موللر. [المعرب]

[178] فلاديمير سولوفييف: مستشرق روسي، ولد عام (١٩٢٤م). تخرج من المعهد الشرقي بموسكو (١٩٤٩م). قدم مصر باحثا في العربية وآدابها. كما زار سوريا ولبنان. من آثاره العربية كتاب "سوريا الحديثة" (موسكو ١٩٥٨م). (المستشرقون: نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة ١٠٨/٣).

[179] بيترون: لم أقف على ترجمة لهذا المستشرق. والراجح عندي أن المقصود به: "دك.بتروف" (١٨٧٢-١٩٢٥م). اختص بالدراسات العربية في الأندلس، نشر طوق الحمامة لابن حزم، بمقدمة فرنسية وفهارس (ليدن ١٩١٤م). (المستشرقون ٨٢/٣).

[180] لبيديف: هي المستشرقة الروسية أولغا ليبيديف، المولودة عام (١٨٥٤م). (المستشرقون ٧٦/٣).

والأدبي، والاختلاف العام فيما بينهم- إلى الإسلام، وجاهلا بأن كل إنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يلعب على الدوام دور النجاح والتقدم، وأن الديانة ما هي إلا شيء مستقل، مجرد من كل قوة، لا تستطيع تحسين حالة الحياة[181].

ثم إنه وأخيرًا، لابد من حصول الشقاق المتبادل الدائم بين المتدينين بالديانات المختلفة. ولو كان ذلك بطريقة غير محسوسة، لكنه دائم الحركة المشتركة بين المتخالفين في المعتقدات.

وكل ديانة كما لا يخفى تكون في أول ظهورها محرك قوي، يشعل روح الحركة في قلوب الذين يتبعونها، وذلك على قدر ما يكون لها من التأثير الروحي والمادي في نفوسهم. ولكنها- أي الديانة- تتقلب مع مرور الزمان في أدوار مختلفة، بحسب حالة تابعيها من العلو والانحطاط، فتعتز وتعلو بعلو شأنهم، وتنحط

---

[181] القول بأن الديانة ما هي إلا شيء مستقل، مجرد من كل قوة، لا يستطيع تحسين حالة الحياة... يصدق على فهم الغربيين للدين، ونظرتهم له. فالدين عندهم ما هو إلا طقوس وشعائر، يقوم بها رجال الدين في معابدهم. ولا تأثير لها فيما وراء ذلك. وأما الدين كما أراده الله تعالى، فميزان القسط في الأرض، يحكم حياة الإنسان في معتقده، وأخلاقه، ومعاملاته، وعباداته. وتقوم عليه سياسة الدولة، ونظام المجتمع، وأسس الحضارة. فلا انفصال بين الفكر والعمل، ولا انفصام بين الوجدان والسلوك، ولا تخالف بين العلم والدين. لذا لا يعد الدين منفصلا عن شيء في الحياة، ولا ينفصل شيء عن الدين. فالدين قوة دافعة نحو التقدم، يدفع أصحابه للأخذ بأسباب القوة العلمية والعملية، وتحسين حل الحياة. يقول الله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} (الأنفل:٦٠). ويقول سبحانه: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} (المائدة٤٩). وعن سلمان أنه قيل له: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة! قل: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع، أو بعظم" (أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة (٢٦٢)).

بانحطاطهم، ويدخل عليها في الحالة الأخيرة الفساد، وتشوه الاختلافات التي تدخل عليها وجه حقيقتها، وتزعزع أساس جوهرها.

وهذا هو السبب الوحيد، والبرهان الفريد، على ظهور البدع والشيع المتعددة في هيكل الديانة الواحدة، وكذلك دخول الفساد على تعاليمها وتفاسيرها.

ولو قابلنا حالة الديانة المسيحية بحالتها في القرون الوسطى، وفي أيام الإصلاح، وأيامنا الحاضرة، لظهرت لنا بأجلى بيان، تلك الأمور المختلفة التي كابدتها، وما دخل عليها من التغيير والفساد، والتفاسير المتناقضة المتباينة، مع أنها ديانة مبنية على أساس متين واضح.

ومثل ذلك جرى للديانة الإسلامية، بقطع النظر عما دخل عليها من البدع والتفاسير التي لا تطابق حقيقة جوهرها، وليست منها في شيء...".

١٠. مراسلات
محمد عبده وتولستوي

جرت مراسلات بين تولستوي والشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م)، نشعر من قراءتها أنّ نظرتهما إلى أمور الدنيا والآخرة متشابهة متقاربة.

رسالة محمد عبده الأولى إلى تولستوي:

بعد أن حرم المجمع الكنسي المقدس تولستوي عام (١٩٠١م)، من الكنيسة لنقده لها بوجهٍ عامٍ في مؤلفاته العديدة، وبوجهٍ خاصٍ في روايته "البعث"، التي صدرت في عام (١٨٩٩م)- كتب الإمام الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبده (بتاريخ ١٨ أبريل، عام ١٩٠٤م)، إلى الفيلسوف تولستوي، واضع هذا الكتاب، الخطابَ التالي. فآثرت إثباته؛ لجزيل فائدته. وهو بالحرف الواحد:

"أيها الحكيم الجليل: مسيو تولستوي!.. لم نَحْظَ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نُحرم من التعارف مع روحك. لقد سطع علينا نورٌ من أفكارك. وأشرقت في آفاقنا شموسٌ من آرائك، ألفتْ بين نفوس العقلاء ونفسك.

لقد هداك الله إلي معرفة سر الفطرة التي فُطر الناس عليها، ووقفك علي

الغاية التي هدي البشر إليها، فأدركتَ أن الإنسان جاء إلى هـذا الوجـود لينبـت بالعلم، ويثمر بالعمل؛ ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه، وسـعيًا يبقـى بـه ويرقى بنو جنسه. وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لمَّا انحرفوا عن سنة الفطرة، واستعملوا قواهم- التي لم يُمنحوهـا إلا ليسـعدوا بهـا- فيمـا كـدر راحـتهم، وزعزع طمأنينتهم.

ونظرتَ نظرة في الدين مزقتْ حجـب التقاليـد، ووصـلتَ بهـا إلى حقيقـة التوحيد. ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليـه. وتقـدمت أمـامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنتَ بقولك هاديًا للعقول، كنت بعملـك حاثا للعزائم والهمم.

وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون، كـان مثالـك في العمـل إمامًـا يقتدي به المسترشدون.

وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء، كان مـدادًا مـن عنايتـه للضـعفاء الفقراء.

وإن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشـاد، هـو هذا الذي سمَّاه الغافلون بالحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم، أعلنوه للناس: أنك لست من القوم الضالين. فاحمد الله على رقوك في أقوالهم، كما كنت في عقائدهم وأعمالهم!

هذا وإن نفوسنا لمشتاقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل مـن أيـام عمرك. وإنا نسأل الله أن يمد في حياتـك، ويحفـظ عليـك قـواك، ويفـتح أبـواب

القلوب لفهم قولك، ويسوق الناس إلي التأسي بك في عملك.. والسلام"[182].

توقيع:

مفتى الديار المصرية

محمد عبده[183]

رد تولستوي على رسالة محمد عبده:

ما إن استلم ليف تولستوي رسالة الشيخ محمد عبده حتى كتب مباشرةً إلى الناقد الإنكليزي "كوكريلو" (بتاريخ ١٢ مايو عام ١٩٠٤م): "الآن استلمت رسالة المفتي، واعترف لك بالجميل والامتنان؛ لأنك حملت لي هذه الرسالة. إنّ المفتي يمتدحني كثيرًا في رسالته على الطريقة الشرقية، ولذلك فإنّني أجد صعوبةً في الإجابة على هذه الرسالة، وإنّني مسرور جدًا، بمعرفتي بهذا الإنسان اللطيف".

أجاب تولستوي على رسالة محمد عبده، وجاء في جوابه:

"أيّها الصديق العزيز! تلقيت خطابك الكريم، الملئ بالمديح. وهأنذا أسارع في الرد عليه، مؤكدًا امتناني الكبير لهذا الخطاب، الذي أتاح لي الاتصال برجل مستنير، رغم اختلاف عقيدته عن العقيدة التي نشأت عليها وتربيت، ولكن من

[182] علق دمحمد عمارة على هذه الرسالة قل: "وهكذا يثني الإمام محمد عبده على "تولستوي"، منوهًا بما يملكه من خلق كريم.. وفى الوقت نفسه، وبطريق غير مباشر يدعوه إلى الإسلام، بما لديه من أخلاق، ترشحه ليكون رمزًا من رموز الإسلام.. لو أراد". (إسلام أون لاين. نت: ١٩٩٩-٢٠٠٦).

[183] رسالة الشيخ محمد عبده إلى تولستوي محفوظة بخط محمد عبده وباللغة العربية في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، وتحمل رقم (٥/٢٠٤). ونشرت الرسالة المذكورة مع رسالة أخرى من محمد عبده إلى تولستوي في المجلد الثاني من الأعمل الكاملة للإمام محمد عبده.

نفس الديانة؛ حيث إن العقائد تختلف وتتكرر، ولكن ليس هناك سوى دين واحد، هو دين الحق.

آمل ألا أكون قد أخطأت إذا افترضت من واقع خطابك: أن الدين الذي أؤمن به، هو دينك الذي يرتكز على الاعتراف بالله وشريعته في حب الغير، وأن نتمنى لهذا الغير ما نتمناه لأنفسنا. وأعتقد أن جميع المبادئ الدينية تندرج من هذا المبدأ"[١٨٤].

وواضح من هذه الرسالة أن ليف تولستوي يرى أنَّه يوجد ديانات كثيرةً مختلفةً، ولكن هناك عقيدةً واحدةً حقيقيةً، وهي تتلخص في الإيمان باللّه الواحد، وبمحبة الآخرين، وبمطالبة الناس بعمل الخير بعضهم لبعض، ويرى تولستوي أنَّ جوهر الرسالات الثلاثة، أيّ اليهودية، والمسيحية، والإسلام- واحد. ويرى ضرورة ابتعاد أتباع هذه الرسالات عن الطقوس الشكلية؛ لكي يستطيعوا التقارب. فعندما تبدأ المؤسسات الدينية بالبساطة، تصل إلى توحيد قلوب المؤمنين.

ويختم تولستوي رسالته بالتعبير عن المشاعر الصادقة تجاه الشيخ محمد عبده.

رسالة محمد عبده الثانية إلى تولستوي:

أمّا الرسالة الثانية فلا تختلف كثيرًا عن الرسالة الأولى، ويخاطب فيها محمد عبده تولستوي قائلاً:

"أيّها الروح الذكي! صدرتَ من المقام العَليِّ إلى العالم الأرضيِّ، وتجسدت فيما سموه بتولستوي.. قوي فيك اتصل روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك

---

[١٨٤] موقع إسلام أون لاين. نت: ١٩٩٩-٢٠٠٦. إسلام أون لاين.نت IslamOnline.net

عما تسمو إليه نفسك... وأدركت أنّ الإنسان خُلق ليتعلم؛ فيعلم؛ فيعمل، ولم يُخلق ليجهل؛ ويكسل؛ ويهمل".

ومما يؤسف عليه أنّ الشيخ محمد عبده توفي في يوليو عام (١٩٠٥م). ولذلك انقطعت هذه المراسلات.



١١. في رثاء تولستوي

شعر أحمد شوقي

وحافظ إبراهيم

والزهاوي

احتل تولستوي مكانةً مرموقةً في الأدب العربي والفكر العربي، بالمقارنة مع غيره من الكتّاب الأوروبيين. وترك أدبه وفكره بصماتٍ واضحةً على الأدب العربي والفكر العربي المعاصر، كما ترك على الآداب العالمية كلها. وقد تُرجم كثير من مؤلفاته إلى اللغة العربية بعد الحرب العالمية الثانية. وكُتبَ كثير حول أدبه في الوطن العربي.

ولما انتقل الفيلسوف تولستوي من دار الفناء إلى دار البقاء، وقع نبأ وفاته وقعًا مؤلمًا في الغرب والشرق. ورثاه الفلاسفة والشعراء.

رثاء أحمد شوقي لتولستوي:

يصف أحمد شوقي تولستوي بالحكمة والشجاعة، فعليه يحزن الفقراء؛ لأنّه نصير الضعفاء، ويبكيه المؤمنون؛ لأنّه أخذ من الدين جوهره. فهو دافع عن الفقراء، ضد ظلم الأغنياء، وجاهد ضد الحروب جميعها، ونادى بالمحبة. يقول أمير

الشعراء أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢م) في قصيدته التي عنوانها "تولستوي"[١٨٥]:

تولستوي تجري آية العلم دمعها

عليك، ويبكي بائس وفقير

وشعبٌ ضعيف الركن زال نصيره

وما كل يوم للضعيف نصير

ويندب فلاحون أنت منارهم

وأنت سراج غيبوه منير

يعانون في الأكواخ ظلمًا وظلمة

ولا يملكون البث[١٨٦]، وهو يسير

تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا

عليهم، وتغشى دورهم وتزور

ويأسى عليك الدين إذ لك لبه

وللخادميه الناقمين قشور

أيكفر بالإنجيل من تلك كتبه[١٨٧]

أناجيل منها منذر وبشير[١٨٨]

---

[١٨٥] جدير بالذكر أنّ هذه القصيدة ترجمت إلى اللغة الروسية. نقلها إلى الروسية الشاعر جورافيلوف، ونشرت في "مختارات من الشعر العربي في مصر". صدرت في موسكو، في عام ١٩٥٦م.

[١٨٦] البث: الشكوى، والحُزْنُ. والبَثّ في الأصل: أشَدّ الحزن، والمرضُ الشديد (لسان العرب ١١٤/٢. النهاية في غريب الأثر ٢٣٠/١).

[١٨٧] يشير إلى تكفير الكنيسة لتولستوي، وحرمان البابا له.

ويبكيك ألفٌ فوق "ليلى" ندامة

غداة مشى بـ"العامري"[189] سرير

تنـاول ناعيـــك البـلاد كأنـــه

يَراع[190] له في راحتيك صرير[191]

وقيل تولى "الشيخ" في الأرض هائمًا

وقيل بـ"دَير" الراهبات أسير

وقيل قضى لم يغنِ عنه طبيبـُه

وللطب من بطش القضاء عذيـر

إذا أنت جاورت "المعري"[192] في الثرى

---

[188] يقصد كتاب إنجيل تولستوي. أو أن كل كتاب من كتبه يشبه الإنجيل في قدسيته.

[189] العامري: هو قيس بن الملوح، حبيب ليلى. وقد بكته كثيرًا بعد موته.

[190] يراع: قلم.

[191] صرير: هو صوت القلم. وفي الأصل "سرير"، ولا معنى لها هنا.

[192] أبو العلاء المعري: أحمد بن عبد الله بن سليمان، الشاعر المشهور بالزندقة، اللغوي صاحب الدواوين والمصنفات في الشعر واللغة، ولد سنة (٣٦٣هـ/٩٧٤م)، أطلق عليه رهين المحبسين: حبس الدار، وحبس العمى. قال عنه ابن كثير: وفي بعض أشعاره ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين. ومن الناس من يعتذر عنه، ويقول: إنه إنما كان يقول ذلك مجونا ولعبًا، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد كان باطنه مسلمًا. قال ابن عقيل لما بلغه: وما الذي ألجأه أن يقول في دار الإسلام ما يكفره به الناس. قال: والمنافقون مع قلة عقلهم وعملهم، أجود سياسة منه؛ لأنهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها، وهذا أظهر الكفر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه. والله يعلم أن ظاهره كباطنه... ثم أورد ابن الجوزي من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الإسلام أشياء كثيرة، فمن ذلك قوله:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنونا وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب السماء على امرئ ... رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

وجاور "رضوى" في التراب "ثبير"[١٩٣]

وأقبل جمع الخالدين عليكما

وغالي بمقدار النظير نظير

جماجم تحت الأرض عطرها شذى

جناهن مسك فوقها وعبير

بهن يباهي بطنُ "حواء"، واحتوى

عليهن بطن الأرض وهو فخور

فقل يا حكيم الدهر! حدث عن البلى

فأنت عليهم بالأمور خبير

أحطت من الموتى قديمًا وحادثًا

بما لم يحصل منكر ونكير

طوانا الذي يطوي السموات في غد

وينشر بعد الطي وهو قدير

وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله، وتاب منه. وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله، ويتنصل منه. وهي القصيدة التي يقول فيها:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

امنن علي بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

وكانت وفاته سنة (٤٥١هـ/١٠٥٨م) (البداية والنهاية ١٢/٧٣-٧٤).

[١٩٣] رضوى: هو جبل ينبع، يقع بين مكة والمدينة. وثبير: من جبال مكة، وهو جبل شامخ يقابل حراء (معجم البلدان ١/٢٩٣، ٢/٢٣٣).

تقادم عهدانا على الموت واستوى

طويل زمان في البلى وقصير

كأن لم تضق بالأمس عني كنيسة

ولم يؤوني دَيرٌ هناك طهور

أرى راحة بين الجنادل[١٩٤] والحصى

وكل فراش قد أراح وثير

نظرنا بنور الصوت كل حقيقة

وكنا كلانا في الحياة ضرير

إليك اعترافي، لا لِقَسٍ وكاهنٍ

ونجواي بعد الله وهو غفور

فزهدك لم ينكره في الأرض عارف

ولا متعالٍ في السماء كبير

بيان يشم الوحي من نفحاته

وعلم كعلم الأنبياء غزير

سلكت سبيل المترفين ولذَّ لي

بنون ومال والحياة غرور

أداة شتائي الدفء في ظل شاهق

وعدة صيفي جنة وغدير

---

[١٩٤] الجنادل: جمع جَنْدَلٌ، وهو الحجارة (مختار الصحاح، ص١١٩).

ومتعت بالدنيا ثمانين حجة

ونضر أيامي غنى وحبور

وذكر كضوء الشمس في كل بلدة

ولا حظ مثل الشمس حين تسير

فما راعني إلا عذارى أجرنني

ورُبَّ ضعيف تحتمي فيجير

أردت جوار الله والعمر منقضٍ

وجاورته في العمر وهو نضير

صبًا ونعيمٌ بين أهل وموطن

ولذات دنيا، كل ذاك نذور

بهن وما يدرين ما الذنب خشية!

ومن عجب تخشى الخطيئة حور

أو أنس في داج من الليل موحش

ولله أنس في القلوب ونور

وأشبه طهر في النساء بمريم

فتاة على نهج المسيح تسير

تسائلني: هل غير الناس ما بهم؟

وهل حدثت غير الأمور أمور؟

وهل آثر الإحسان والرفق عالم

دواعي الأذى والشر فيه كثير؟

وهل سلكوا سبل المحبة بينهم

كما يتصافى أسرة وعشير؟

وهل آن من أهل الكتاب تسامح

خليق بآداب الكتاب جدير؟

وهل عالج الأحياء بؤسًا وشقوة

وقل فساد بينهم وشرور؟

ثم انظر، وأنت المالئُ الأرضَ حكمةً

أأجدَى نظيم، أم أفاد نثير؟

أناس كما تدري، ودنيا بحالها

ودهر رخيٌّ تارة وعسير

وأحوال خلق غابر متجدد

تشابه فيها أول وأخير

تمر تباعًا في الحياة كأنها

ملاعب لا ترخي لهن ستور

وحرص على الدنيا، وميل مع الهوى

وغش وإفك في الحياة وزور

وقام مقام الفرد في كل أمة

على الحكم جم يستبد غفير

وحور قول الناس مولى وعبده

إلى قولهم مستأجر وأجير

وأضحى نفوذ المال، لا أمر في الورى

ولا نهى إلا ما يرى ويشير

تساس حكومات به وممالك

ويذعن أقيال[195] له وصدور

وعصر بنوه في السلاح وحرصه

على السلم يجرى ذكرها ويدير

ومن عجب في ظلها وهو وارف

يصادف شعبًا آمنًا فيغير

ويأخذ من قوت الفقير وكسبه

ويؤوي جيوشًا كالحصى ويمير

ولما استقل البر والبحر مذهبًا

تعلق أسباب السماء يطير[196]

---

[195] الأَقْيال: ملوك باليمن، دون الملك الأعظم. واحدُهم: قَيْل. يكون ملكاً على قومه. مَحْمُول على لَفْظ قَيْل، كما قالوا: أرْياح في جمع ريح. والسائغ المَقِيس: أرْواح (لسان العرب ٥٧٢/١١. النهاية في غريب الأثر ٢٠٦/٤).

[196] كتب المستشرق السوفييتي المعاصر شيفمن، الذي كان يعمل في معهد تولستوي الأدبي في موسكو، عن رثاء أحمد شوقي لتولستوي: "عندما نقرأ رثاء الشاعر العربي، نتحسس مشاعر الاحترام العميق التي يحملها أحمد شوقي لتراث تولستوي الذي يتميز بنزعته الإنسانية".

رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي:

كتب الشاعر المشهور حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢م)، شاعر وادي النيل، رثـاءه بعد سماعه بوفاة الكاتب الروسي مباشرةً، وبعد أن سمع برثاء أحمد شوقي له. فلقد توفي تولستوي في (٢١ نوفمبر، عام ١٩١٠م). وفي الشهر نفسه نشر حافظ إبراهيم رثاءه.

والرثاء، كما نرى، دمعّة حزنٍ ذرفها شاعر رقيق على إنسان كتـب مـدافعاً عـن طبقة الفلاحين في روسيا القيصرية وعبّر عن وجهة نظرهـم في شؤون الحياة.

كـان رثـاء حـافظ إبـراهيم لتولسـتوي لا يختلـف كـثيرًا مـن حيـث الشـكل والمضمون عن رثاء أحمد شوقي له. حتى أن القافية واحدة. قال:

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبري

لمدحك من كتاب مصر كبير

ولست أبالي حين أرثيك بعده

إذا قيل عني قد رثاه صغير

فقد كنت عونا للضعيف وإنني

ضعيف ومالي في الحياة نصير

ولست أبالي حين أبكيك للورى

حوتك جنان أو حواك سعير!

فإني أحب النابغين لعلمهم

وأعشق روض الفكر وهو نضير

دعوت إلى عيسى فضجت كنائس

وهزَّ لها عرش، وماد سرير

وقل أناس: إنه قول ملحد

وقل أناس: إنه لبشير

ولولا حطام رد عنك كيادهم

لضقت به ذرعًا، وساء مصير

إذا زرت رهنَ المحبسين[١٩٧] بحفرة

بها الزهد ثاوٍ والذكاء ستير[١٩٨]

وأبصرت أنس الزهد في وحشة الليل

وشاهدت وجه الشيخ وهو منير

وأيقنت أن الدين لله وحده

وأن قبور الزاهدين قصور

فقف ثم سلم واحتشم إن شيخنا

مهيب على رغم الفناء وقور

وسائله عما غاب عنك فإنه

عليم بأسرار الحياة بصير

يخبرك الأعمى وإن كنت مبصرًا

بما لم تخبرْ أحرفٌ وسطور

---

[١٩٧] يريد أبا العلاء المعري. [المعرب]

[١٩٨] كثيرًا ما قارن الكتاب والشعراء والنقّاد العرب بين تولستوي والمعري. ولا أرى وجه شبه بينهما كما قلمت.

كأني بسمع الغيب أسمع كلما

يجيب به أستاذنا ويحير

يناديك أهلا بالذي عاش عيشنا

ومات ولم يَدْرج إليه غرور

قضيت حياة ملؤها البر والتقى

فأنت بأجر المتقين جدير

وسموك فيهم فيلسوفًا وأمسكوا

وما أنت إلا محسن ومجير

وما أنت إلا زاهد صاح صيحة

يرن صداها ساعة ويطير

سلوت عن الدنيا ولكنهم صبوا

إليها بما تعطيهمُ وتُمير

حياة الورى حرب، وأنت تريدها

سلامًا وأسباب الكفاح كثير

أبت سنة العمران إلا تناحرًا

وكدحًا ولو أن البقاء يسير

تحاول رفع الشر والشر واقع

وتطلب محض الخير وهو عسير

ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم

دليل على أن الإله قدير

ولم يبعث الله النبيين للهدى

ولم يتطلع للسرير أمير

ولم يعشق العلياء حر، ولم يسد

كريم، ولم يرجُ الثراءَ فقير

ولو كان فينا الخير محضًا لما دعا

إلى الله داعٍ إن تبلج نور

ولا قيل: هذا فيلسوف موفق

ولا قيل: هذا عالم وخبير

فكم في طريق الشر خير ونعمة!

وكم في طريق الطيبات شرور!

ألم تر أني قمت قبلك داعيًا

إلى الزهد لا يأوي إليَّ ظهير

أطاعوا "أبيكير" و"سقراط" قبله

وخولفت فيما أرتئي وأشير

ومت وما ماتت مطامع طامع

عليها، ولا ألقى القياد ضمير

إذا هدمت للظلم دور تشيدت

له فوق أكتاف الكواكب دور

أفاض كلامًا في النصيحة جاهدًا

ومات كلانا والقلوب صخور

فكم قيل عن كهف المساكين باطل!

وكم قيل عن شيخ المعرة زور[199]!

وما صدَّ عن فعل الأذى قولُ مرسلٍ

ولا راع مفتونَ الحياة نذير

رثاء الزهاوي لتولستوي:

يرثي تولستوي الشاعرُ العربي الكبير جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦م) الذي عاصر أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم. وقافية قصيدته (الراء)، مثل قافية قصيدتيهما، كما أنّ الموضوع هو نفسه.

لقد عشت عمرا أنت فيه ظهير

لمن عاش بين الناس وهو فقير

بكفك مصباح من العلم ساطع

به لعقول الناشئين تنير

وقد كنتَ حرا في حياتك مصلحًا

[199] أوردنا اختلاف الناس في الحكم على أبي العلاء المعري بالكفر والزندقة. ولا يرى وجه شبه بين تولستوي والمعري. فقد قاوم تولستوي رجال الدين الذين يفرضون على الناس الخضوع لتأويلهم الباطل للدين وتحريفهم له، وبعدهم به عما كان عليه المسيح نفسه. وأما تهمة أبي العلاء فمن قوله الذي يظهر واضحًا الإلحاد والزندقة فيه. وقد أوردنا بعضه. ومن كفره من الأئمة.

تدور مع الإنصاف حيث تدور

أفدنا بأسرار الحياة دراية

فأنت بأسرار الحياة خبير

ويُبيِّن الزهاوي أنّ تولستوي واجه الظلم والسلطة المستبدة، ووعظَ أصحاب الزعامة، وذكَّرهم بأنّ الحياة فانية، ونهاهم عن الظلم.

مقال المنفلوطي عن تولستوي:

أرسل مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤م)، وهو ممن تلقوا علومهم في جامعة الأزهر، التي كان يرأسها الشيخ محمد عبده- رسالةً مفتوحةً إلى تولستوي في عام (١٩١٠م)، بعد أن عرف من وسائل الإعلام أنّ تولستوي ترك منزله ليعتزل الناس.

ابتدأ المنفلوطي رسالته هذه بقوله: "قف ساعةً واحدةً نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك[٢٠٠]، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك، فقد عشنا في كنفك على مابيننا وبينك من بعد الدار، وشط[٢٠١] المزار، عهدًا طويلا كنا فيه أصدقاءك، وإن لم نرك وأبناءك، وإن كان لنا آباء من دونك، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعةٍ نذرفها بين يديك في موقف الوداع".

ثم يتناول المنفلوطي في رسالته صراع تولستوي ضد القيصر: "قلت لقيصر: أيّها الملك! إنّك صنيعة الشعب وأجيره، لا إلهه ومعبوده. وإنّك في مقعدك فوق

[٢٠٠] طيتك: الطية هي النية والقصد وقولهم: اعمد لطيتك، معناه امض لقصدك. يقال: مضى لطيته، أي لنيته ووجهته (غريب الحديث للخطابي ٤٥٩/١).

[٢٠١] شطَّ: يقل شَطَّتِ الدار، إذا بعدتْ (المصباح المنير ٣١٣/١).

عرشك، لا فرق بينك وبين ذلك الأكار[٢٠٢] في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجور على عملٍ يعمله، وكلاكما مأخوذ بإتقان ما يعمل، فكما أنَّ صاحب المصنع يسأل العامل: هل وفَّى عمله؛ ليوفي له أجْره؟ كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وُكِلّ إليك حراسته، فأنفذته كما هو، من غير تبديلٍ، ولا تأويلٍ؟ هل عدلت بين الناس، وآسيت[٢٠٣] بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟

ويتحدث المنفلوطي عن ملاحقة القيصر لتولستوي، بدلا من إصغائه لنصائحه. ثم يتحدث عن جهاد تولستوي ضد القوة الثانية التي تضطهد الشعب وهي قوة الإقطاع: "وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك وأنت نائم في سريرك، بين روضك، ونسيمك وظلك ومائك- هذه الأرض التي تضم بين أقطارها مليون فدانٍ، ولا يملك أحد من هؤلاء الملايين- الذين يفلحونها ويحرثونها، ويبذرون بذورها، ويستنبتون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها، وأجيجها وثلجها- شبرًا واحدًا فيها. فاعرف لهم حقهم، وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك".

ويتكلم المنفلوطي عن الحياة البسيطة التي كان تولستوي يعيشها. فلقد كان يعمل في الحقل مع الفلاحين، ويرتدي الملابس التي يرتدونها. ولكن الإقطاعيين لم يستمعوا إلى نصائحه، ولم يتخذوا منه قدوة.

ويكتب المنفلوطي عن صراع تولستوي ضد قوةٍ ثالثةٍ، هي قوة رجال الدين.

---

[٢٠٢] الأَكَّارُ: الزَّرَّاعُ (لسان العرب ٢٦/٤).

[٢٠٣] آسيت: سويت.

فكان جواب رجال الدين في روسيا أن أرسلوا إليه كتاب الحرمان من الكنيسة؛ لأنّ تولستوي طالبهم بتأييد الشعب الفقير، ضد الأغنياء، وضد الملوك. فالدين يقضي عليهم بهذا، وليس اللهث وراء الدنيا وزخرفها.

ويتحدث المنفلوطي أيضًا عن تنديد تولستوي بتعذيب المساجين والمنفيين في سيبيريا، واستنكاره للحروب وويلاتها، وعن دعوته للمحبة والتسامح.

وهكذا فإنّ المنفلوطي يرى عظمة تولستوي في صراعه وحيدًا ضد قوى الشر بكلّ أشكالها، وهو لا يتطرق في رسالته هذه إلى الروايات الخالدة العالمية التي كتبها تولستوي، وهي رواية "الحرب والسلم"، ورواية "آنّا كارينينا"، ورواية "البعث". لا يتحدث المنفلوطي عن تولستوي الفنان، وإنّما يتحدث عن تولستوي المصلح الاجتماعي"[٢٠٤].

---

[٢٠٤] الكاتب الروسي: ليف تولستوي والأدب العربي في القرن العشرين. دراسة تطبيقية في الأدب المقارن. موقع الأديب: حسن غريب. الشبكة الدولية للمعلومات.

مراجع الدراسة

الحديث وشروحه:

١. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ

٣. السلسلة الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

٤. السلسلة الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

٥. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٦. سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧. سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥هـ)، تحقيق: فواز

أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٨. سنن ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

٩. سنن النسائي، المجتبى من السنن: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (٣٠٣هـ)، ط٢، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٠. شرح النووي على صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

١١. شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٢. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، ط٣، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير- اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٣. صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٤. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (٣٥٤هـ)، ط٢، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٥. صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، تحقيق: د.محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

١٦. صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

١٧. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٨. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، ط٤، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥م.

١٩. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

٢٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.

٢١. (تخريج) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ط٣، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٢. المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق عوض الله محمد، وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٢٣. المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٢٤. فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري: أحمد بن علي بن حجر

العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٥. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٢٦. مسند الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٢٧. مسند أبي يعلى: أحمد بن علي، أبو يعلى الموصلي التميمي (٣٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٢٨. مسند عبد بن حميد: أبو محمد عبد بن حميد بن نصر، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢٩. مسند الشهاب: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٣٠. المصنف: ابن أبي شيبة المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.

كتب التاريخ والبلدان:

١. البداية والنهاية في التاريخ: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت.

٢. تاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٣. معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت.

معاجم اللغة:

١. كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٢. غريب الحديث: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.

٣. القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٧م.

٤. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت.

٥. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٧. النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي- محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

كتب عامة:

١. الإسلام خواطر وسوانح:هنري دي كاستري، دار الفرجاني، القاهرة.

٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٣. الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٩٥م.

٤. المستشرقون: نجيب العقيقي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

٥. المسلمون في الاتحاد السوفيتي: ف.يفريموف- ل.جاباروف، المكتب الصحفي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٦. معجم المطبوعات: إليان سركيس، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٩٢٨م.

مواقع الشبكة الدولية للمعلومات:

١. موقع إسلام أون لاين. نت: ١٩٩٩-٢٠٠٦. إسلام أون لاين.نت IslamOnline.net

٢. موقع البيان مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر ٢٠٠٦ ©.

٣. موقع طريق إلى البيت، هذا المقال بالإنجليزية، تاريخ: ١٩٩٨-١١-٠١

٤. موقع ويكيبيديا WIKIMEDIA project، الموسوعة الحرة.

٥. الكاتب الروسي: ليف تولستوي والأدب العربي في القرن

المُحتَويَاتْ

المحتويات

تعريف بهذا الكتاب

ترجم عبد الله السهروردي، الهندي المسلم، بعض الأحاديث النبوية إلى اللغة الإنكليزية. واطلع عليها "ليف تولستوي"، فترجمها إلى اللغة الروسية، وقدَّم لها مقدمة تتسم بالإنصاف التام، والإعجاب الكامل برسول الله محمد ﷺ.

ولما رأى الفيلسوف الروسي تولستوي تحامل الملحدين والمنصريين على الدين الإسلامي ورسوله ﷺ، ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أمورًا تتنافى مع الحقيقة، تصور للروس تلك الديانة وأعمال معتنقيها تصويرًا يغاير حقيقتهم وواقعهم. هزته الغيرة على الحق الذي يعرفه؛ وشعر في أعماقه بأن السكوت عن البيان ليس من سمات الكاتب الحر، والمفكر الأصيل.

فتصدى لتأليف رسالة عن نبي الإسلام ﷺ، وجوانب من تاريخ حياته، قال فيها: "لا ريب أن هذا النبي من كبار المُعلّمين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخرًا أنه هَدَى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء! وفتح لها طريق الرقي والتقدم. وهذا عمل عظيم، لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلمًا. ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام".

وقدم تولستوي للكتاب بمقدمة، تحدث فيها عن قضايا كثيرة تتصل بالإسلام والمسلمين في روسيا، ولخص في كتابه الأصول البارزة للدين الإسلامي، وعرض لحياة النبي محمد- عليه الصلاة والسلام، وتقشفه وصبره ومعاناته مع الكفار. وضرب أمثلة من أقوال المستشرقين وغيرهم، قبل أن يصل إلى الأحاديث التي ترجمها.

وقد قام سليم قبعين بترجمة كتاب تولستوي، وأضاف إليه مقدمة عن أوضاع المسلمين في روسيا في أوائل القرن التاسع عشر، وذكر بعض آراء المنصفين للإسلام، والمتعصبين عليه.

ولكن هذه الترجمة تحتاج إلى تحرير وتنظيم، وتعليق وبيان، ورد على الشبهات التي تثيرها نصوصه، كما تحتاج إضافة عن حياة تولستوي، وشخصيته، وفكره، وآثاره. وموضوعات أخرى عن إسلامه، وموقفه من الكنيسة، وموقف الكنيسة منه.